دراسات إسلامية

- ٨ -

شهيدة العشق الإلهي

رابعة العدوية



تأليف

عبد الرحمن بدوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوى

ا ـ مبتكرات

١ ـ الزمان الوجودى .
٢ ـ هموم الشباب .
٣ ـ مرآة نفسى (ديوان شعر) .
٤ ـ الحور والنور .

ب ـ دراسات أوربية

١ ـ الموت والعبقرية .
٢ ـ قلوب الفلاسفة .

خلاصة الفكر الأوربى

١ ـ نيتشه .
٢ ـ اشپنجلر .
٣ ـ شوپنهور .
٤ ـ افلاطون .
٥ ـ ارسطو .
٦ ـ ربيع الفكر اليونانى .
٧ ـ خريف الفكر اليونانى .
٨ ـ برجسون .

ج ـ دراسات اسلامية

١ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية .
٢ ـ من تاريخ الالحاد فى الاسلام .
٣ ـ شخصيات قلقة فى الاسلام .
٤ ـ الانسانية والوجودية فى الفكر العربى .
٥ ـ ارسطو عند العرب .
٦ ـ المثل العقلية الأفلاطونية .
٧ ـ منطق ارسطو فى ٥ اجزاء .
٨ ـ شهيدة العشق الالهى .
٩ ـ شطحات الصوفية .
١٠ ـ روح الحضارة العربية .
١١ ـ نظرية الانسان الكامل فى الاسلام .
١٢ ـ الاشارات الالهية للتوحيدى .
١٣ ـ الآراء الطبيعية لفلوطرخس .
١٤ ـ افلوطين عند العرب .

د ـ ترجمات

الروائع المائة

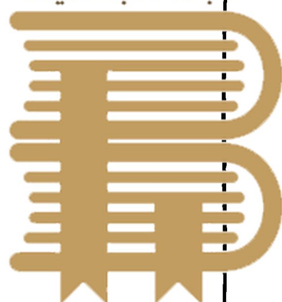
١ ـ ايشندروف : من حياة حائر بائر .
٢ ـ فوكيه : اندين .
٣ ـ جيته : الديوان الشرقى (فى جزئين)
٤ ـ بيرن : اسفار اتشيلد هارولد .
٥ ـ هيلدرلن : هيپريون .
٦ ـ نيتشه : زرادشت .
٧ ـ رلكه : صحائف مالتى برجه .

دراسات إسلامية
— ٨ —

شهيدة العشق الإلهي

رابعة العدوية

تأليف
عبد الرحمن بدوي



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

فهرس الكتاب

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

شهيدة العشق الإلٰهى

ڤينسيا العربية ترفُّ كالآل الزاخر بالتهاويل فى رؤى الساغبين اللاغبين الضاربين إليها من أعماق الفيافى فى قلب الجزيرة العربية؛ حتى إذا بلغوها وأناخوا الإبل عند المِربَدِ دخلوا المسجد الجامع من باب البادية، فبهرتهم دقة الأساطين وبراعة الفن الذى أضفاه زياد بن أبيه على هـذا الأثر الرائع للمعمار الإسلامى الأوّل(١)، وجَلَّوا بأبصارهم المُغبرّة برمال البادية إلى هذه التقوى المترفة، فاستشعروا مسّاً مما ينتظرهم على الجانب الشرقى ناحيتى الشمال والجنوب حيث السفن الزاهية تنحدر من الشمال قادمة من بغداد فى نهر مَعْقِل، والجوارى المنشئات فى الخليج الفارسى تمخر عُباب نهر الأُبلّة متصاعدة من الجنوب فى وقار لأنها مُوَقرة بأثمن السّلع المحمّلة إليها من الهند والصين.

تلك هى مدينة البصرة(٢) التى أنشأها عُتْبة بن غَزْوان سنة ست عشرة هجرية (= ٦٣٧ ميلادية) بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كما تكون فيها نقلة بين البادية والحضر، بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان وبين الترف الناعم الهائم فى أوداء القداسة الشهوانية. ولذا جاءت مزيجاً من هذين الطرفين المتباعدين فى تخطيطها ومساق الحياة فيها، وكانت روحها مسرحاً لمأساة هذا الازدواج المتوتر العنيف فى طبيعتها. وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها: ففى روح كلٍّ تسكن طبيعتان متعارضتان: إحداهما تتلمّس غذاءها من قوت الحواسّ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب. ولن تستطيع إحداهما القضاء

---

(١) راجع ياقوت: «معجم البلدان»، نشرة ڤستنفلد، جـ١ ص ٦٤١ — ص ٦٤٣.

(٢) راجع: لوسترانج: «بلاد الخلافة الشرقية» ص ٤٤ — ص ٤٥ G. Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate كمبردج سنة ١٩٠٥، و«دائرة المعارف الإسلامية»، تحت المادة؛ وياقوت، الموضع السالف، وكتاب «صورة الأرض» لابن حوقل نشرة كرامرز J. H. Kramers فى ليدن سنة ١٩٣٨، جـ ١ ص ٢٣٥ — ص ٢٣٨.

على الأخرى ، بل سيظل التعارض قوياً عنيفاً ، وفى عنفه يقوم ذلك التوتر الحىّ الذى يجعل من حيواتهم مصدراً للتشويق لا يقل فى قيمته عن مذاهبهم . ماذا أقول ! بل فى حياة أكثرهم ما يفوق مذهبهم بمراحل عدّة . ولذا يجب على الباحث أن يتلمّس عندهم كلتا الناحيتين المتعارضتين ، وأن يفلسف حيواتهم على أنها لذوات وجودية باطنها زاخر بممكنات التفتُّح على ضوء المجهول . والذوات الوجودية التى من هذا القبيل تحيا فى الأسطورة كما تحيا فى التاريخ ، لأن التاريخ يستحيل عندها إلى أسطورة والأسطورة تستحيل إلى تاريخ ، فلا تستطيع أن تميز بين الجانبين بوضوح . وحتى لو استطاع ذلك المؤرخُ المتزمّت لما أجدى هذا فى التفسير ، لأن حياة هؤلاء بعد وفاتهم أقوى بل وأصدق . لذا يجب أن نعدّ فترة عبورهم فى الدنيا بمثابة زناد يقدح الشرارة المقدسة التى هى ذاتهم . وستستمر تلك الشرارة تضىء للناس قدراً من الزمان يتوقف على قوة الشرارة الأولى . فمن الخطأ أبين الخطأ فى الفهم التاريخى السليم أن نَطّرح جانب الأسطورة ، لأن هذه الأسطورة هى لُحمة التاريخ الحقيقى الحىّ لتلك النفوس الخارقة .

فإلى جانب الحياة اللاهية التى عَمَرَتْ بها الفنوتُ والمتاجرُ مما كان خير إطار لقصص « ألف ليلة وليلة » ، هناك الرُّبُط التى تشيع فيها الزهادة والقداسة ؛ وإلى جانب الأسواق الصاخبة بمشاغل المادة وشئون الدنيا ، كانت المساجد والمكتبات العامة بمثابة معابد للفكر الرفيع . ففى ساحة السوق — حيث ضجيج الأعمال وعقد الصفقات ، واختلاط الأجناس الوافدة من شتى الأصقاع ، وأسباب الترف — كان يقوم المسجد الجامع الثانى الذى كان أفخر مساجدها حتى لم يكن له فى العراق بأسره نظير . فإذا ما تزود مَن بالسوق من أفخم السلع المادية أوى إلى المسجد فطاف على حَلقاته : هنا حَلْقة النحويين واللغويين يحتدم فيها الجدل الصارخ حول شاردة من شوارد اللغة قذف بها فى جمعهم كوفىٌّ جاء محمّلاً بأسلحة أهل بلده ؛

وهناك مجلس الحسن البصرى تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقى مواعظه الضاربة فى فيافى الزهد فيستدرُّ الدمع من مآقى الحاضرين ، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية الناضرة ، أو تثار فيه مسائل من التوحيد سرعان ما تُشيع الحرارة فى هذا الجوّ الرقيق . فإذا ما جَنّ الليل وسكن الأحياء وجُسْتَ خلال المدينة — شأن الغرباء ذوى النفوس الطُّلَعة المغامرة — ترامت إلى مسامعك أنغام اللهو العنيف فى نفس الوقت الذى يقرع أذنيك فيه تضرّعاتُ المتهجدين القانتين . هنا اللاّهون يمخرون بزوارقهم الزاهية فى مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفون ويعربدون ؛ وهناك فى زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستلهمون الموت والقبر أفكاراً وموضوعات للتأمل الحزين والعظة البالغة والعزوف عن الدنيا . هنا أمثال ابن أبى عُيَيْنة يقضون الليالى البيض بين أحضان الشهوة الآثمة فى إقبال لهيف على نِعَم الحياة[1] ؛ وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسى ممن لا يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله ، تراه دائماً هائماً بين المقابر ، وفى الليل يضع فى عنقه غُلاًّ من حديد ثم يضرع ويبكى حتى الصباح[2] : أولهما يرتاد مِنْطقة الأُبُلَّة حيث القصور والبساتين والمناظر الأنيقة والبرك الفسيحة المرصوفة وغرائب الملاذ وتُحَفِ المتظرفين[3] . والآخر لا يرتاح إلا إلى البادية ، أو يتأمل النخيل فى الخريف وقد اسودّ جميعه بما حَطّ عليه من غِربان قواطع ، فكان منظره داعياً إلى التأمل الساجى للبال الكاسف والقلب اللهيف .

---

(١) راجع أشعاره فى التشوق إلى لياليه اللاهية فى البصرة لما أن ارتحل إلى جرجان ، فى ياقوت : « معجم البلدان » ، نشرة فستنفلد ج ١ ص ٦٥١ .

(٢) راجع : «طبقات الأولياء» لعبد الرؤوف المناوى ، مخطوطة بالظاهرية برقم ٤١٦٤ عام ص ١٠١ .

(٣) ابن حوقل : «صورة الأرض» ، نشرة كرامرز ، ص ٢٣٦ ، ليدن سنة ١٩٣٨ .

فهلمُّوا معى الآن ، أيها السادة ، إلى كوخ وضيع ولكنه عامر بالقدامة ، تسكنه عجوز سُحِلَتْ مريرتها وقد ذرَّفت على الثمانين ، « كأنها الشَّنُّ تكاد تسقط »[1]. كل ما فى البيت قطعة من البورِىّ الخلق، « ومِشْجَبُ قَصبٍ فارسى طوله من الأرض قَدْرُ ذراعين ، وستر البيت جُلَّة » ؛ وليس فيه من الأدوات إلا حِب وكوز ؛ ثم « لِبْدٌ هو فراشها وهو مُصَلَّاها . » أما المشجب فلم يكن يحوى شيئاً من الملابس لأنها لا تكاد تملك منها شيئاً ، وإنما كان يحمل أكفانها ، فكانت تستخدم هذا المشجب بما عليه من أكفان كيما تضع أمام عيونها موضوعاً للتأمل أثناء الذكر العقلى ، مثلها مثل القديسة تريزا الأبيلاوية — والصوفية المسيحيين عامة — فى استخدامها نموذج المَصْلَب Calvaire . فمصلبها هو مشجبها المجلل بأكفانها . وما أقوى الشبه — كما سنرى — بين هذه الصوفية المسلمة وبين تلك الصوفية المسيحية ! وإن فى الدراسة المقارنة لكلتيهما لما يوضح التصوف الخاص بهما كما يفسر كثيراً من الظواهر الصوفية عامة .

— ١ —

هذه الصوفية المسلمة هى رابعة العدوية التى قضت عمرها منذ توبتها وهى تحترق بنار الحب الإلهى حتى آلت فى آخر حياتها إلى تلك الحال التى وصفنا ، فكانت شهيدة العشق الإلهى حقاً .

وليس لنا ، ويا للأسف ! عن حياتها من الوثائق ما يسمح بتأريخ تطورها الروحى على نحوٍ مفصل أو شبه مفصل ، كما هى الحال بالنسبة إلى القديسة تريزا الأبيلاوية مثلا . ولئن كان المؤرخون للتصوف المسيحى يشكون من فقر الوثائق عن الفترة

(١) ابن الجوزى : « صفة الصفوة » ، ج ٤ ص ٥٧ ب ، مخطوط بالظاهرية بدمشق رقم ٦٧ تاريخ ؛ وابن شاكر الكتبى ، « عيون التواريخ » ج ٣ ورقة ٧ ب (عن سنة ١٣٥ هـ) مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٤٤ تاريخ .

الأولى من حياة القديسة تريزا ، مع أن لها ما لها من الترجمة الذاتية والمؤلفات الخاصة التى تشير فيها إلى شوارد من حياتها ، فماذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامى لاعن الفترة الأولى من سيرة رابعة فحسب ، بل عن حياتها كلها وهو لايكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان إليها ! وحتى هذه الوثائق المُتَّهمة الضاربة فى نطاق الأسطورة ضئيلة تافهة قد اختلط الأمر فيها إلى أبعد حدّ لعدة أسباب أهمها أن لها سَمِيَّة أخرى تدعى بنفس الاسم أو على الأقل باسم لايكاد يفترق عن اسمها إلا بنقطة ، مما كان مثاراً للخلط الفاحش فى إيراد أخبارها . وأشهد عن نفسى أننى كنت كلما توغلتُ فى دراستها وتكشفت لى المخطوطات عن وثائق جديدة ، شعرت بشخصيتها تتراجع إلى كهف الأساطير أو تتحلل أخبارها بين يدىّ حتى كدت أيأس نهائياً من الظفر بشىء عن حياتها وأقوالها يمكن المؤرخَ المتثبت أن يقرره وهو مطمئن الضمير . فكل ما يروى عنها ينساب كالماء بين فروج أنامل الباحث الذى يريد أن يتخذ منهجاً نقدياً سليماً فى البحث العلمى . على أنى قد حاولت جهدى مع ذلك أن أميز فى الوثائق نفسها بين ما ينسب إليها وما ينسب إلى رابعة الأخرى ، معتمداً هنا على تمييز الأسانيد فى سلسلة الرواة من ناحية ، وعلى التخلفات التاريخية anachronismes الصارخة من ناحية أخرى .

فلنحاول هنا — معتمدين على هذا المنهج — أن نقدم صورة إجمالية عن تطورها الروحى .

— ٢ —

لا نكاد نعلم — وفقاً لما بين أيدينا من وثائق — عن حياة رابعة الأولى ونشأتها إلا ما رواه فريد الدين العطار « فى تَذْكِرَةِ الأولياء »[١] . والعطار

(١) نشرة نيكولسون ، ج ١ ص ٥٩ — ص ٦١ ، ليدن ولندن سنة ١٩٠٥ — سنة ١٩٠٧ . وراجع ترجمة پاڤيه دى كورتى عن الترجمة الأويغورية ، ص ٥٤ وما يليها ، باريس سنة ١٨٨٩ A. Pavet de Courteille: Le Mémorial des Saints .

رجلٌ جامح الخيال لا يمكن أن يُطْمأَنّ إلى أقواله إلا بعد أن تتأيد عن طريق المصادر الأخرى . ومما يؤسف له أن المصادر التى عثرنا عليها حتى الآن لم تُشر إلى هذه الفترة من حياتها . لكننا لا نستطيع مع ذلك أن نرفض ما قاله العطار فى هذا الصدد جملةً ، لأن الوثائق الجديدة التى تتكشف لنا يوما بعد يومٍ تؤيد كثيراً من الروايات التى أوردها العطار وكنا نظن أنه وحده الذى أتى بها . وهذا يحملنا على الاقتصاد فى اتهام أقواله ؛ فلعل وثائق جديدة أن تؤيد رواياته التى لا نجدها حتى الآن فى المصادر الأخرى . فمن الإسراف الظالم فى التشكك والنقد أن نفترض أنها من اختراعه . وإنما نقدمها حذرين ونسوقها على أنها لا تزال بمعزل عن التأييد الكافى .

على أن رواية العطار عن طفولتها وتنشئتها والفترة إلى ما قبل توبتها يمكن أن تقبل فى عين المؤرخ إذا ما اطرحنا منها جانب الخوارق والكرامات . فهو يقول إنها حين ولدت ، ولدت فى بيت فقير كل الفقر ؛ فلم يكن لدى أبويها قطرة سمن حتى يَدْهُنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمت مصباح ولا خِرَق للفّ الوليد . فدعته زوجه إلى الذهاب إلى الجيران للحصول على زيت لإضاءة القنديل . وإرضاءً لزوجه — على الرغم من أنه عاهد الله على ألا يطلب من عبد من عباد الله شيئاً — ذهب وطرق باب الجيران فلم يفتح له . فأنبأها بما حدث فبكت . هنالك أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي فقال له النبيُّ : لا تحزن ! فهذه البنت الوليدة سيدةٌ جليلة القدر ، وإن سبعين ألفاً من أمتى ليرجون شفاعتها ؛ ثم أمره بالذهاب صبيحة الغد إلى عيسى زاذان أمير البصرة ويكتب له ورقة يقول فيها إن النبي زاره فى المنام وقال له أن يتوجه إليه ويقول : إنك تصلى مائة ركعة ، وفى ليلة الجمعة أربعمائة ، لكنك فى يوم الجمعة الأخير نسيتنى . ألا فلتدفع أربعمائة دينار حلال لهذا الشخص (والد رابعة) كفّارة عن هذا النسيان . » فلما أفاق

والد رابعة من نومه كتب الرسالة التى أُمِرَ بكتابتها ودفعها عن طريق الحاجب إلى الأمير ؛ فلما قرأها الأمير أمر بإعطائه أربعمائة دينار ؛ وقال لهم : ائتونى به لأراه ! ثم راجع نفسه وقال فى الحال : لا أرى من الموافق أن يأتى إلىّ ، بل سأذهب أنا بنفسى إليه ، وأتمسح بلحيتى على أعتابه . وأسعى لأحصل على كل ما تشتهيه هذه البنت الجليلة .

تلك رواية العطار عن مولدها . والشىء الوحيد الذى يمكن المؤرخَ أن يثق به فيها هو أن رابعة نشأت فى بيت فقير كل الفقر . ونحن نعلم من المصادر الأخرى أنها مولاة آل عتيك[1] ، وآل عتيك بطن من بطون قيس ؛ ولهذا أطلق عليها الجاحظ[2]،وهو أقدم مصادرنا عنها، اسم رابعة القيسية. ومن آل عتيك بنو عدوة ولهذا تسمى أيضاً رابعة العدوية[3]. أما كنيتها فهى أم الخير . وهنا تتبدى أمامنا

(١) ابن خلكان ، « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨ م ؛ ابن تغرى بردى ، « النجوم الزاهرة » جـ ١ ص ٣٣ ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ .

(٢) « البيان والتبيين » جـ ٣ ص ٨٥ ،القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ؛ « الحيوان » ، جـ١ ، ص٧٨ ،القاهرة سنة ١٩٠٧

(٣) عتيك هو بطن من الأزد ، وهو عتيك بن النضر بن الأزد بن الغوث بن بنت مالك ابن كهلان بن عامر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح . والمشهور بالانتساب إليها أبوأسماء سلمة بن منيب العتكى من أهل مرو ، و يروى عن سيف بن سبيمة عن ابن عمر ، روى عنه الفضل بن موسى الشيبانى وأبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى — مولى بنى عتيك من أهل واسط ، سكن البصرة ، يروى عن قتادة وأبى إسحق ، روى عنه الثورى وحماد بن سلمة والبصريون . كان مولده سنة ٨٣ بنهربان — قرية أسفل من واسط — ومات سنة ستين ومائة فى أولها ... وعباس بن سنان العتكى الصيرفى من أهل البصرة يروى عن أبى نصرة وأبى الحلال ... وأبو الليث عبيد الله بن عبد الله العتكى من أهل مرو ... والمشهور من المنتسبين إلى هؤلاء يوسف بن عبد العتكى مولى يزيد بن المهلب من أهل البصرة راجع («الأنساب» للسمعانى ، نشرة مرجوليوث ، ليدن سنة ١٩١٢ ورقة ٣٨٣ ب — ٣٨٤ ا).

ويمكن أن نفترض من هذا أن آل عتيك كانوا فى مرو ، ومن ثم انتقلوا إلى البصرة ، هم ومواليهم . فهل تكون رابعة أصلها من مرو ؟ لابد حينئذ أن نفترض أنها من أصل إيرانى ، وقد يؤيد هذا اشتغالها بالعزف على الناى ، وهى حرفة كادت تقتصر ممارستها على الفرس .

مثا كل عدة خاصة بهذا الولاء : فهل كان ولاؤها لآل عتيك لما أن أُسِرَت فى صغرها وهى تهيم على وجهها و بيعت كما يحدثنا العطار ؟ أم كان الولاء من جانب أبيها وأسرتها ؟ نرجح أن يكون الولاء من جانب أسرتها ، لأن نسبتها بالولاء إلى قيس ترد فى نسبها ونسب أبيها . ومشكلة أخرى : متى تم تحريرها ؟ أمن ذلك السيد الذى تحدث عنه العطار وسنذكره عما قليل ، أم تم بالنسبة إلى أبيها من قبل و بقيت النسبة فى الاسم فحسب ؟ نرجح أيضاً الرأى الثانى لأن العطار نفسه لايذكر أن أباها كان عبداً . ومشكلة ثالثة هى أصل أسرتها : أكان أبوها فارسياً أم من عنصر آخر ؟ ومتى أسلم ؟ وعلى أية ديانة كان قبل إسلامه ؟ ألا يكون فى الأصل مسيحياً وأسلم ، أم الذى أسلم هو رابعة بعد أن عانت الرّق ؟ أسئلة يمكن أن تثار وتتوارد على الخاطر دون أن يجد لها حلاً وعنها جواباً ؛ و إنها لعلى أخطر درجة من الأهمية بالنسبة إلى الباحث ، لأنها تتصل بمشكلة بالغة الخطورة ، هى مشكلة نشأة التصوف الإسلامي، لأن رابعة تنتسب إلى الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا فى التصوف روحا جديدة كل الجدّة على التطور العام للحياة الروحية فى الإسلام . والنغمة الجديدة التى أدخلتها رابعة فى التصوف الإسلامي من العسير ألا نفترض فيها أصولا سابقة صدرت عنها ، أصولا كانت على شعور بها أو لم تكن ، سواء ؛ فالشعور واللاشعور هاهنا يتساو يان فى إحداث الأثر . ونعنى بهذه النغمة فكرة الحب الإلهى بمعناه الكامل الذى ينطوى على كل معانى الحب الشهوانى متسامياً إلى موضوع غير حسِّى : فالاختلاف هنا فى الموضوع لا فى العاطفة والطريقة . ولسنا نعلم فى الروحية الفارسية قبيل الإسلام بوجود مثل هذه النغمة ، ولهذا فنحن أميل إلى استبعاد العنصر الفارسى فى المذهب الروحى الذى كانت تدين به أسرتها قبل إسلامها . فإذا كان لا بد من تلمُّس مصدر للتأثير الواعى أو اللاواعى ، فيجب أن يتجه البحث خصوصاً إلى التأثير

المسيحى لأنه تغلب عليه هذه الفكرةُ ، فكرة المحبة الإلهية . على أن هذا مجرد افتراض نُرْجيه دون توكيد على أى وجه ، أولاً لأننا نجهل كل شيء عن ديانة أسرتها ، وثانياً لأن البحث — حتى فى المدى الذى وصل إليه التصوف المسيحى فى تلك المِنطقة — لا يزال بعيداً عن أن يسعدنا فى إيضاح هذه النواحى الموغلة فى الغموض . ولنا عودٌ إلى هذه المسألة بعد حين .

أما أبوها فيذكر ابن خلكان[١] أن اسمه إسماعيل ، وعليه جرى الزبيدى[٢]. أما المُناوى[٣] فلا يذكره ويكتفى بنعتها بالقيسية ؛ ولكنه يذكر بعدها رابعة بهذا الاسم : « رابعة بنت إسماعيل العدوية » وهى رابعة الأخرى أو رابعة التى اختلطت بها ؛ وكذلك فعل الشعرانى[٤] : ميز بين « رابعة العدوية » و « رابعة بنت إسماعيل » ؛ و بقية المصادر تغفل ذكر اسم أبيها ، مثل العطار وابن الجوزى ؛ أو تنقل ما أورده ابن خلكان[٥] . فإذا كان لنا أن نستخلص شيئاً من هذا فهو أن كون أبيها اسمه إسماعيل أمر مشكوك فيه كل الشك ؛ ونرجّح كل الترجيح أن يكون قد اختلط الأمر على ابن خلكان فى هذا الموضع كما اختلط عليه فى مواضع أخرى سنفصلها بعد حين ، فمزج بين رابعة العدوية أو القيسية و بين رابعة زوج أحمد بن أبى الحَوارِى . وهذا هو السر فى أن المصادر الأقدم مثل ابن الجوزى لم تذكره . ومعنى هذا إذن أن اسم أبيها لا يزال لدينا مجهولا ، مما له أثره فى الجواب أيضاً عن الأسئلة التى أثرناها منذ حين ، و بخاصة ما يتصل بديانة أسرتها .

---

(١) الموضع نفسه. (٢) « اتحاف السادة المتقين » ، حـ ٩ ص ٥٧٦ ، ص ٦٨١ .

(٣) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ ص ١٠٤ ا ، ص ١٠٦ ا (عن رابعة بنت إسماعيل العدوية) .

(٤) « الطبقات الكبرى » ، حـ ١ ص ٨٦ ، القاهرة .

(٥) مثل ابن شاكر الكتبى فى « عيون التواريخ » ص ٥٧ (مخطوط الظاهرية رقم ٤٤ تاريخ) .

ولدت رابعة إذن فى أسرة فقيرة كانت تدين بالولاء لآل عتيك من بنى قيس فماذا كان أمرُ تنشئتها ؟ يقول لنا العطار إنها لما كبرت وتوفى والدها وهى لا تزال فى ريعان الصبا حدث فى البصرة قحط ، فتفرقت وأخواتها الثلاث يهمن على وجوههن . فرآها ظالمٌ أَسَرَها وباعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل .

وهنا يذكر لنا العطار كيف هبطت عليها رسالتها الروحية . فيقول إنها كانت تسير ذات يوم فشاهدت رجلا غريباً ظلّ يرمُقُها بنظره مضمراً لها الشر ، فهربت وسارت فى طريق دمشقها هى الأخرى ، ثم ارتمت على التراب وظلت تناجى ربها : « إلهى ! أنا غريبة يتيمة ، أرسُف فى قيود الرق ، لكن غمّى الكبير هو أن أعرف : أراضٍ أنت عنّى أم غير راضٍ؟» فسمعت صوتاً يقول: «لا تحزنى! ففى يوم الحساب يتطلع المقرَّبون فى السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » . فلما سمعت هذا الصوت عادت إلى بيت سيدها ، وصارت تصوم وتخدُم سيدها وتصلى لربها متهجّدة طَوال الليل .

تلك هى الفترة الحاسمة فى حياة رابعة وفقاً لهذه الرواية . فلو أخذنا بها لقلنا إن الانصراف إلى الزهد وابتداء الرسالة الروحية إنما هيأ له ما كانت تعانيه فى رقها وما احتملته إبان ذاك من آلام وذل ومهانة . فلم تجد خلاصاً أو بالأحرى عزاءاً لها عن تلك الحال إلا فى الإيمان والثقة بالله والتعزى بالآخرة عما تلقاه فى الدنيا . وهى ظاهرة طالما حدثت فى النفوس النبيلة التى قضى عليها بالعبودية . نراها فى الجيل الأول للمسيحية ونراها كذلك عند الرعيل الأول فى الإسلام لدى بلال بن رَباح وصُهيب الرومى وسَلمان الفارسى . فالنفس النبيلة إن أرغمتها الحياة الخارجية بقهرها المادى على العبودية انطوت على نفسها كيما تحررها فى الباطن ؛ وهذا التحرير الباطن لابد أن يتم فى عالم آخر غير العالم المادى الواقعى الذى لا تجد فيه غير الاستعباد ؛ ومن هنا تنصرف إلى تطلُّب الملكوت الأعلى . حتى إذا

استشعرت شيئاً منه انطلقت بحرية تزداد سَعَة كلما ازدادت النفوس ثقة بذاتها ، ولن تقف حتى تبلغ اللانهاية ، وإن تفاوتت النفوس فى درجة الشعور بها وفقاً لمرتبتها فى معراج السمو الروحى : فإن كانت ذات مكانٍ عَلِيٍّ رأيتها هائمة تحلق فى سماء الألوهية إلى درجة الاتحاد بل الهوية فيما بينها و بين الله ؛ و إن كانت من تلك النفوس التى لم تسعدها الثقافة الروحية الرفيعة ، اعتصمت بالتوكل المذعن والرضا الساجى الذى يطوّف أحياناً بجنبات الملكوت أو يرنو ببصره إلى أعتاب الحضرة عند حفافى العرش المجيد . فمن النوع الأول سَلْمان الفارسى ، تلك النفس الهائمة فى مِنْطقة الألوهية المستورة ، ومن هنا كان تأويل الشيعة لدور سلمان خير فهمٍ لحقيقته و إن تبدى لنا على أنه من تهاويل الغنوص الشيعى (١) . ومن النوع الثانى بلال بن رباح مؤذن الرسول ، الذى يجب أن يدرس على ضوء هذه الظاهرة ، ويفسر تعلقه بالأذان على أنه وجَد فيه نوعاً من الخطاب المباشر لله ، فكان أذانه بمثابة ذكر للتواجد ، يشيع فى نفسه تلك الجذبة الروحية التى تلقى به بين أحضان الألوهية ، وكان ارتقاؤه المئذنة — مهما يبلغ طولها — مثار شعور بالعلاء فى معراج السلوك إلى الحضرة .

إن الذات النبيلة الممتازة إذا لم تجد مَصْرِفاً لممكناتها فى الخارج ، فى العالم ، بين الأشياء الظاهرة ، انفجر باطنها الزاخر بالممكنات فاستحال عالماً آخر سَرعان مايصبح عند صاحبه كأنه العالم الحقيقى الوحيد وكل شىء خلاه باطل ؛ وانتصاره الأكبر إنما يتم نهائياً بالقضاء على الوجود — فى — العالم ، على العالم ذى الأدوات ، على الغيرية والسِّوى ، على هذه العوائق التى تقف فى سبيل النمو الكامل للممكنات غير المتحققة . والطريق إلى هذا يتفاوت بين النفوس النبيلة بعضها بعضاً وفقاً

---

(١) راجع بحث ماسينيون عن «سلمان الفارسى» فى كتابنا «شخصيات قلقة فى الإسلام» ص ٣٢ — ص ٤٢ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

لمزاجها الروحى الخاص . فالذين كانوا يريدون أن يظفروا بالدنيا ، بالوجود — فى — العالم عن طريق السلطة والقهر يسلكون إلى الألوهيـة أيضاً « طريق القهر » ، بأنواع التعذيب والزهادة القاسية ؛ والذين كانوا يبتغون الظفر عن طريق الحب ، والتأثير الشخصى بالجاذبيـة التى للشخصية الممتازة ، يتخذون إلى الرب « طريق الحب » . ورابعة العدوية ، وهى المرأة ، هل لها أن تسلك غير السبيل الثانية ؟ ! لهذا سنراها تتخذ طريق الحب للاستيلاء على الألوهية ، بعد أن لم تفلح فى الوصول عن طريق الحب فى الدنيا إلى الاستيلاء على الناسوتية .

ففى هـذه النادرة التى رواها العَطّار ما يكشف لنـا عن طريق دمشق لدى رابعة. ومعناها أنها أفكرت فى طريق الخلاص فوجدته فى الانعكاف على باطنها ؛ لـكنها كانت فى حاجة إلى صوت يقوّيها ويشد أزرها فيؤكد لها أن تلك الطريق التى ستسلـكها ستفضى بها إلى غايتهـا الجديدة المنشودة وهى الخلاص عن طريق الحب الألوهيـة حتى تظفر بالحضرة فيها . فليس بعجبٍ فى واقع الأحوال النفسية لأمثال هؤلاء أن يخَيّل إليهم أن طائفاً رحمانياً قد طاف بنفوسهم ، وهى فى الصراع مع أحوالها فى العـالم للظفر بالنجاة ، فشد أزرهم ومَنّاهم بخير المنقلب وعظم الغـاية ونبل النهاية . فهـذا يحدث لـكل منا فى أبسط أحوال مهامّه ومشاغله ، فما بالك ونحن بإزاء المهمّ الأكبر فى حياة الشخص ؟! فتلاميـذ عَمْواس ، وطريق دمشق عند القديس بولس ، ورؤيا أوستيا عنـد القديس أوغسطين ، ووحى دِلْف لدى سقراط ، ووحى حِراء عند النبي محمد — كلها أمور لا تتأبى على منهج البحث النفسانى العلمى إذا ما فُهِمَتْ على أنها أحوال من الـكلام النفسى الصادر عن ازدواج النفس حينما تُلِمُّ بها المهمّات .

هذه اللحظة فى حياة رابعة يجب أن تعـــد نقطة التطور الحاسمة فى حياتها الروحية ، شأنهـا شأن تلك الأحوال التى أتينا على ذكرها عند أضرابها من كبار

الشخصيات الروحية فى العالم . لكنها لا تزال فى الأمر المادى لدى ذلك السيد القاسى الذى أرهقها وأعنتها فكان لهذا الإرهاق والإعنات فضل انفجار روحها الباطنة النبيلة . فكيف تنجو من هذا الأسر ؟

هنا يلجأ العطار مرة أخرى إلى الخوارق ؛ فيزعم أن سيدها استيقظ ذات ليلة ، ونظر من خَوْخَةٍ أو خَصاص فى الباب ، فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول : « إلهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونورَ عينى فى خدمة عتبتك ؛ ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك ، لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عَبَدتك » . وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يحلّق وهو بسلسلة غير معلّق ، وله ضياء يملأ البيتَ كلَّه . فلما أبصر هذا النور العجيب فزع ونهض من مكانه وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وقال : « أى رابعة ! وهبتك الحرية . فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعاً فى خدمتك ؛ وإن شئت رَحَلْتِ أنَّى رغبتِ ! » ما أجملها فرصة إذن بالنسبة إلى رابعة ! فما كان منها إلا أن ودّعته وارتحلت ، ثم انقطعت للعبادة والتقوى .

تلك أسطورة تحريرها من الرّق ؛ ولن يستطيع المؤرخ إلا أن ينعتها بنعت الأسطورة ؛ والشيء الوحيد الذى يمكن أن نأخذ به منها هو أن رابعة أعتقت ؛ أما كيف ؟ ولماذا ؟ فهذا ما لا نستطيع الوثائق التى بين أيدينا أن تضفى النور عليه ؛ فلندعه نقطة غامضة إلى جانب النقط الغامضة التى لا حصر لها فى حياة رابعة .

ثم مَن كان هذا السيد ؟ أكان من آل عتيك ، ما دامت رابعة تسمى مولاة آل عتيك ؟ هذا أيضاً مما لا نستطيع الإدلاء فيه برأى قاطع بَلْهَ راجح .

صارت رابعة إذن حرة ؛ فلها أن تسلك سبيلها فى الحياة أَنَّى شاءت . وهنا نلقى رواية لم يذكرها غير العطار ، راوينا الوحيد عن تلك الفترة ، وهى تقول

إن رابعة اتخذت مهنــة العزف على الناى[1] زمناً ما ، ثم تابت من بعــد ذلك وأصلحت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة .

هذه الرواية التى ذكرها العطار ومرّ بها مرّاً سريعاً لأنها لا تتفق مع الصورة الخيالية التى يريد أن يرسُمها لرابعة وهو الشاعر الجامح الخيال ، نريد نحن أن نقف عندها مَليًّا لمــا لها من أهميــة خاصة . ونحن نقطع بصحتها لأنه ما كان للعطار أو غيره أن يذكرها لو لم تكن صحيحة ، لأنهــا ليست ممــا يشرُف به قدرها ؛ وهو وغيره من رواة أخبــار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يزوّقوا ما استطاعوا فى ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين .

فنحن نفترض ما يلى : أن رابعة لما أعتقت اندفعت بفضل الحرية التى وُهبتها إلى المشاركة فى حياة الدنيــا ؛ ومثل هذه الفترة من حياتها مثــل تلك الفترة التى أمضتها القديسة تريزا الأبيلاوية منذ أن غادرت دير التجسد فى أبيلا إلى سنة ١٥٥٥ حين بدأت حياتها الثانية . فانطلقت رابعة تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناى والإطراب . وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت على حظ من الجمال ، ولعل هذا أن يفسر لنا ما روى من أخبار — لعلها أسطورية — عن تقــدم الكثيرين للاقتران بها . ودعاها إلى اتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فنى ممتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد فى غير الفن مجالا للظهور فى الدنيا والمشاركة فى الحياة . والمشاهَد عامة فى حيــاة النسوة اللائى وهبن قدراً من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قضِى عليهن بتلمس أســباب الرزق بوسائلهن الخاصــة . ويحتمل كذلك أنها إبّان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد . فهذه المهنة فى ذلك العصر كان من غير الممكن

---

(١) «وگرو هى گويند در مطربى افتاد» (العطار ، «تذكرة الأولياء» ، نشرة نيكولسون ، جـ١ ص ٦١) .

أن تستقل بنفسها ، ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحابيل التى تنصب لمثيلاتها فى هذا المضمار. ويخيّلُ إلينا أنها قطعت شوطاً طويلا فى طريق الإثم وغرقت فى بحر الشهوات واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها تابت من بعد ذلك . فهذه التوبة نفسها هى أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد فى طريق الشهوة . فالأطراف فى تماسٍ كما يقولون ، والاعتدال لايمكن مطلقاً أن يؤدى إلى التحول الحاسم conversion. فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائما نتيجة لعنف و إفراط ومبالغة فى الطرف الأول المُنْقَلَبِ عنه . فعنف إيمان القديس بولس كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقية لدى القديس أوغسطين كان لازما طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسية التى حَيّها قبل تحوله إلى الإيمان . إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون و يخلقون التاريخ . وما كان يمكن رابعةَ أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا .من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان فى الدنيا بأسرها . لهذا أدعو إلى التطرف المطلق كلَّ من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

أوغلت رابعة إذن فى طريق الشهوة الجامحة ما وسعها الإيغال . ثم تابت . فكيف تابت ، وماذا دعاها إلى تغيير طريقها ؟

قلنا إن رابعة قبيل إعتاقها قد استشعرت رسالتها الروحية وهى تحت أعباء الرق المهين . لكنها نسيتها لما أن انطلقت إلى الدنيا الواسعة . لهذا نستطيع أن نفترض أنها إبان انتهابها اللذات كانت بين الحين والحين تخلو إلى نفسها وتتذكر تلك الرسالة التى أُلهمتها . فكان يطوف بها إذاً بين الفينة والفينة طائف من التأنيب والتذكير بالطريق السَّوِىّ . وهذه الفينات خصوصاً هى تلك التى تشعر

فيها إما باليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، و إما بأنها قد اندفعت فى طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط . فلا شك فى أن هذه التنبيهات المتوالية قد أثرت فى منطقة اللاشعور لديها . لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الانقلاب الروحى . وقصارى أمرها أن تكون حالها تلك التى وصفتها القديسة تريزا الأبيلاوية إبان محنة صراع الدنيا والدين فى داخل نفسها ، فقالت : «من ناحية كان الله يدعونى ، ومن أخرى كنت أشارك فى الدنيا . أجل ! لقد كنت أجد فى الأمور الإلهية نعيما كبيرا ، بيد أن قيود الدنيا كانت لا تزال تأخذ بمُخَنَّقِى ، حتى ليبدو لى أنى قد أردت أن أحالف بين هذين الضدّين برغم ما بينهما من عداوة : الحيـــاة الروحية بنِعْمائها ، وحياة الحواس بشهواتها[1] » .

وثمت عوامل أخرى يمكن إدخالها فى تقديرنا : منها إمكان غشيانها مجالس الوعاظ فى مساجد البصرة ، و بخاصة مجلس الحسن البصرى ، فضلاً عما عساها أن تكون لقيته ، حتى إبان عماها ، من صوفية وزهاد . وهنا نتجاسر على الإدلاء بفرض لا ندرى بعد مبلغ الصحة فيه ، وهو أن تكون قد التقت يوماً برياح بن عمرو القيسى الصوفى الكبير ؛ ولعله أن يكون قد توسّم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرة ، فحملها على اطّراح حياتها اللاهية ؛ ولعل فى هذا ما قد يفسر الصلة القوية التى قامت بين كليهما . فقد يكون العطف قد أخذه عليها ، فتمنى لها — وهو صاحب الطبيعة الممتازة — أن تسلك السبيل الذى سلكه هو . ولئن كانت المصادر لا تحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات ، فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حدّ : كانا يقضيان الليل معاً فى بيتها انقطاعاً للتهجُّد والعبادة . ومثل هذه الأحداث كثيراً

(١) القديسة تريزا الأبيلاوية : « حياة » ص ٦٨ ، ترجمة فرنسية ، باريس ، ليكوفر سنة ١٩٠٤ Ste Thérèse, *Vie* (trad. Bouix) .

ما تقع فى حياتنا : فذو النفس النبيلة إذا ما توسم فى إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعان ما يفكر فى إنقاذها مما هى فيه . فمن يدرى ؟ ! لعل هذا هو ماوقع بين رياح بن عمرو القيسى وصاحبتنا رابعة .

على أن هذا كذلك ليس كافياً فى تفسير الانقلاب الروحى عندها ، على الرغم من قوة هذه العوامل . بل لا بد أن يكون قد واكب هذا كُلَّه تجربةٌ يائسة من دنيا الناس ، ولا بد أن نفترض هنا خصوصاً تجربة حبٍّ مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . فذكريات الماضى الداعى إلى التقوى والمواعظ مهما يبلغ تأثيرها عن طريق المثل الحى الصديق لاتكفِ لتفسير ماحدث لديها. فلا مناص إذن من افتراض هذا العامل الثالث الحاسم.

فهذه الأسباب الثلاثة مجتمعةً إذن هى التى أدت إلى الانقلاب الحاسم ، بأن عادت إلى نفسها تستلهمها الطريق الذى بدأته ثم تركته لما أن استشمرت نَسْمَ الحرية فى الدنيا ، وإذا بها عما قليل أسيرة شهوات مدمرة وفريسة خيبات أمل تكسرت على روحها العالية فأشاعت قنوطاً لا يبلغ مداه التعبير . هنالك أحست بأن الحرية التى نشدتها ليست فى الانطلاق بين ملاذ الدنيا ، فهذه عبودية لعلها أعنف وأشد إرهاقاً من تلك التى كانت فيها . ولعلها سمعت آنذاك قول معاصرها الأكبر منها — وقدكانت قداسته تملأ الدنيا فى ذلك الحين — ألا وهو إبراهيم بن أدهم لما أن قال : « الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها[١] » . فالحرية هى « فى اصطلاح أهل الحقيقة ، الخروج عن رق الكائنات ومراداتها وقطع جميع العلائق . . . وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة ، فلا يسترقه عاجل دنياه ولا آجل عقباه[١] » . نقول : لعل رابعة بتأثير هذا كله قد

---

(١) أحمد ضياء الدين الكمشخانلى : « جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم » ، ص ٥٢٢ القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = سنة ١٩١٠ م .

أفكرت فى الحرية الموهومة التى اندفعت فيها ، وما كانت إلا أسراً جديداً لمن له مثل روحها ، أسراً أشد هولاً وقسوة . فلا بد أنها ضاقت ذَرْعاً بتلك العبودية الجديدة وراحت تتلمس سبيل الخلاص نحو الحرية المنشودة ، الحرية الحقيقية التى تخرجها نهائياً عن رق الكائنات .

وتلك هى السنة الحاسمة النهائية فى حياتها ؛ فعندها يتحول الطريق فيتخذ الاتجاه الكامل المضادَّ . ومثل هذه اللحظات مليئة بألوان القلق والعذاب ؛ إنها الليالى الظلماء الحقيقية فى تلك النفوس الكبيرة . فكأيِّنْ من عودات وتقلبات وتَرَجُّحات تتوالى فيها ، أحياناً بسرعة البرق الخاطف ! فكانت تتذبذب بين العود إلى الشرارة المقدسة التى أضاءت فترة قليلة ، و بين الاستمرار فى هذه الحياة اللاهية الناعمة . ولا بد أن يكون التوتر قد كان فى نفسها شديداً كل الشدة فى ذلك الحين : لأن الحياة فى مدينة البصرة كما عرضناها فى أول هذا الحديث كانت تجمع بين الطرفين المتباعدين إلى حد هائل : النعيم الصارخ البالغ أوج الشهوات ، والزهد القاتم القاسى المُعفِّر خَدَّه بالتراب ؛ الفرحة الزاهية تملأ جوانب الأحياء اللاهية ، والحزن الباكى الدامي بين أشباح المقابر . فلم يكن الانتقال إذاً يسيراً بين الطرفين ، إذ لا مجال للانزلاق الطبيعى الميسور بين الواحد والآخر ؛ بل كان لا بد من حدوث انقلاب مفاجىء سريع فيه يعود الوجود الذاتى على وجوده الأصيل فينتزع نفسه بكل قسوة من السقوط — فى — العالم .

فارتدت رابعة إلى نقطة ابتداء خَلْفَتِها ، ولسانُ حالها يقول :

تركتُ هوى لَيْلَى وسُعْدَى بمعزل ... وعُدْتُ إلى مصحوب أوّلِ منزل
ونادت بى الأشواقُ: مهلاً ! فهذه ... منازلُ مَنْ تهوَى ، رُوَيْدكَ ! فانزلِ

— ٣ —

هنا حدثت التوبة . والتوبة عند رابعة لا تتم بالمجهود بقدر ما تتم بالفضل

من الله . روى القشيرى[١] : « قال رجل لرابعة : إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى ؛ فلو تبتُ ، هل يتوب علىّ ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك لَتُبْتَ » . فهى كانت لا تثق فى قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن ذنوبها ، بل كان لا بد لها من رضا الله : فهو وحده الذى يتوب على النـــاس الخطئين ؛ فلو لم يتب ، لم تتحقق لديهم التوبة . وهى نظرية نجد لها نظائر عدة فى التصوف المسيحى ، خصوصاً فى كل مايتصل بفكرة فضل الله la grâce divine . ومن هنا يظهر الجانب السلبى القابل فى كل طبيعتها ، مما سنراه ظاهراً لديها بكل وضوح . ومن شأن هذا الطابع السابى أن يزيد من قلقها على نتائج أعمالها . فهى لا تدرى مطلقاً ما إذا كانت توبتها مقبولةَ عنـد الله أو غيرَ مقبولة ، لأن التوبة ليست فعلا أو حالا تحصله بنفسها ، بل توهبه هبةً . وبهذا نفسر أقوالها التى تدور حول هذا المعنى ، مثل قولها : « أستغفر الله من قلة صدق فى قولى:أستغفر الله[٢] » ، أو قولها مرة أخرى : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيــه[٣] » . ففى القول الأول تعبير عن شدة قلقها — وقد أرْهفَتْ حَساسَتُها فى شعورها بالخطيئة — على ما سيكون مآل استغفارها . وفى القول الثانى توكيد لهذا المعنى مع ذكر الجانب الإيجابى وهو الاستمرار فى الاستغفار دائماً ، لأن التوبة ليست حالة ثبات يمكن بلوغها مرةً واحدة ، بل هى فى حركة مستمرة ولن يستطيع المرء أن يبلغها طالما كان حياً . وفى هذا يدخل جانب حركى يجعل أحوالها الصوفية فى سَورة دائمة ؛

(١) « الرسالة القشيرية » ، باب التوبة ، ص ٤٨ القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ = سنة ١٩١٢ م .

(٢) أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = سنة ٩٩٠ م) : «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٦٤ ، نشرة آربرى ، القاهرة سنة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م .

(٣) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الصوفية » ، مخطوط رقم ٤١٦٤ بالظاهرية بدمشق ورقة ١٠٤ ب ، وقد أورده ابن الجوزى من قبل فى « صفة الصفوة » ص ٤ ورقة ٥٧ ب مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ ، كما أورده ابن شاكر الكتبى فى « عيون التواريخ » جـ ٣ مخطوطة الظاهرية رقم ٤٤ تاريخ ، ورقة ٧ ب تحت أخبار سنة ١٣٥ هـ .

وطابع النقص هذا هو الذى يشعرها بالزمانية المتجددة مما يضفى على أحوالها طابعاً وجودياً بارزاً . إن التوبة ليست حالة سكونية statique ، بل هى حركية قُوَوية dynamique . وهذا يزيدنا وضوحاً فى فهم ذلك الجانب السلبى الذى أبرزنا معناه من قبل . فهو لم يقصد به مجرد السلب والقابلية ، بقدر ما قصد به أن يكون مدعاة لإشاعة الحركة عن طريق الصيرورة والتجدد لفعل الاستغفار ، وإدخال الزمانية بواسطة فكرة النقص الملازم لهذه الأفعال . وبهذا ننقذ أحوال رابعة من طابع القابلية المطلقة quiétisme كيما نفسرها على نحوٍ ديناميكى يمتاز بالحركة والصيرورة .

والصوفى الحق ، الصوفى بالمعنى الوجودى ، هو ذلك الذى يعزف عن الرضا لأنه ينطوى على فكرة سلبية خالصة ، فتراه دائماً فى خوفٍ على أعماله . وهذا ما أكدته رابعة مرة أخرى حين « قيل لها : أعملت عملا ترين أن يقبل منك ؟ (ف) قالت : إن كان ، فخوفى أن يُرَدَّ علىَّ[1] » .

ولهذا فتوبة رابعة لم تتم دفعة واحدة ، بل كانت طوال حياتها فى توبة مستمرة ؛ فمن التقصير فى الفهم إذن أن نَعُدَّ هذه مرحلة فى تطورها الروحى . وكلُّ ما يحق لنا قولُه هو التحدث عن ابتداء فعل التوبة ، وإلا فحياتها كلها كانت توبة متصلة .

أما كيف بدأت فعل التوبة وعلى أية صورة ، فهذا ما لا تتكفل النصوص ببيانه تفصيلا ، لأن من العسير تأريخ أقوالها بحيث ننسبها إلى هذه الفترة أو تلك . بيد أننا نستطيع معالجة هذا النقص باتخاذ المعيار التالى : وهو درجة حرارة النبرة فى شكاتها وتضرعها إلى الله أن يغفر لها . والصورة الأولى — وفقاً لهذا المعيار — نجدها فى تلك الشكاة التى تفوهت بها رابعة لما أن رآها ذلك الغريب وفرت منه ، فيما حكاه العطار[2] وأشرنا إليه من قبل .

---

(١) المناوى : المرجع نفسه ، ورقة ١٠٥ ا

(٢) «تذكرة الأولياء» ص ٦٠ و٦١ ، نشرة نيكلسون .

ثم تعلو هذه النبرة وتتخذ صورة من بقايا حياتها التى تريد أن تكفر عنها بعد أن بدأت التوبة . فلو لم تمرّ رابعة بفترة الضلال ، تلك التى انصرفت فيها إلى الدنيا ، وكانت عازفة على الناى تشارك فى شهوات الجسد بكل فورتها وعرامتها ، لما رأينا هذه النبرة الجديدة فى شكاتها . فالعبارات التى رواها العطار فى تلك الصورة الأولى قد خلت من فكرة الحب ؛ ولكن لما أن بدأت التوبة ، كان عليها ، وهى الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر العاطفة الغرامية الحارة . لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمعناه الحسى مرفوعاً إلى الألوهية قد أدخلته رابعة فى حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللهو الآثم التى مرت بها . ومن هنا كان توكيدنا لأهمية تلك الفترة التى مرّ عليها الباحثون مع أنها فى نظرِنا العامل الأكبر فى تكييف النظرة الصوفية عند رابعة ، إن لم تكن بمثابة العامل الأوحد .

فمن هذه اللحظة اصطبغت الشكوى إلى الله بصبغة الحب والرغبة فى الاتصال بهذا المحبوب الأعلى . ومن الأقوال التى تخلفت لنا عن تلك اللحظة ما رواه صاحب « الروض الفائق فى المواعظ والرقائق [1] » فقال : « حكى عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى أنها كانت إذا صلّت العِشاء قامت على سَطح لها وشدت عليها دِرْعَها وخِمارها ثم قالت: « إلهى ! أنارت النجومُ ، ونامت العيون ، وغَلّقت الملوكُ أبوابها ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وهذا مُقامى بين يديك ! » — ثم تُقْبل على صلاتها ؛ فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهى ! هذا الليل قد أدبر ؛ وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعرى ! أقبِلت منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها عَلَىّ فأَعْزى ؟ فَوَعِزّتك هذا دأبى ما أحييتنى وأَعَنْتَنِي .

---

(١) الشيخ الحريفيش : « الروض الفائق فى المواعظ والرقائق » ، ص ١١٧ ، طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة ، سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م.

وعِزّتك لو طردتنى عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع فى قلبي من محبّتك . »

وهذا نصٌّ ثمين يصور لنا دقائق أحوالها فى تلك الفترة . ويلاحظ عليه أولاً أنه قد صيغ فى عبارة بديعة يسرى فيها عِرْق شعرى ظاهر ، مما كان نتيجة طبيعية لاشتغالها بالفن عازفة على الناى . فنحن نظن أن العرق الشعرى إنما نبض عندها لما أن اشتغلت بالعزف ، خصوصاً لما يستلزمه من غناء وإنشاد . فالملكة الشعرية كانت كامنة فيها ، فلما قضى عليها أن تصبح عازفة انبثقت تلك الملكة ، خصوصاً إذا لاحظنا أنه من غير الميسور أن تقتصر على العزف دون الغناء ؛ فروحنا الشرقية لم تكن لتستسيغ الموسيقى المجردة لما فيها من تعبير عن اللانهائى ، فضلاً عما للكلمة فى الحضارة العربية من مكانة مقدسة ، لهذا فنحن حتى اليوم لم نستطع فى موسيقانا أن نجعلها مجردة عن كل صوت إنسانى ، وهذه ظاهرة لا تحتاج إلى فضل تأييد . لهذا نرجّح إذن أن ابتداء قولها الشعر إنما وقع نتيجة لاحترافها العزف على الناى ، فتدفق منها منذ ذلك الحين يَنبوع الشعر . ولهذا نرى هذا النص يروى بعد ذلك مباشرة أنها أنشدت :

يا سرورى ومُنْيتى وعِمادى ... وأنيسى وعُدّتى ومُرادى
أنت روحُ الفؤاد ، أنت رجائى ... أنت لى مؤنِسٌ ، وشوقُك زادى
أنت لولاك ، ياحياتى وأُنْسى! ... ما تشتّتُ فى فسيح البلاد
كم بَدَت مِنّةٌ ، وكم لك عندى ... من عطاء ونعمة وأيادى
حبُّك الآن بغيتى ونعيمى ... وجَلاء لِعَين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييتُ بَراحٌ ... أنت مِنّى مُمكّنٌ فى السواد
إن تكن راضياً علىّ فإنّى ... يامُنى القلب ! قد بدا إسعادى[1]

والطابع الحسى ظاهر بكل جلاء فى هذه الأبيات ، ويلوح منها أن الأمر

---

(١) الشيخ الحريفيش: « الروض الفائق » ص ١١٧ . طبع القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م

كان لا يزال مختلطاً عليها لأن الخطاب هنا يصلح أن يتجه إلى شخص حتّى كما يصلح — بصعوبة — أن يتجه إلى الله . ماذا أقول ! بل هى فى هذ الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لها يلوح أنه كان متنقلا فاضطرت هى — تحت ستار الترحل لكسب العيش بالعزف ، كما هى الحال بالنسبة إلى الموسيقيين عامة فى تجوالهم لإحياء حفلات فى مختلف البلدان — أن تلاحقه فى الأماكن التى كان ينتقل بينها ، لهذا اضطرت للتشتت فى فسيح البلاد . فلعل ذكرى هذا الحبيب — الذى يمكن افتراض أنه كان العلة فى إحداث خيبة الأمل عندها فى الحب والناس — قد اختلطت فى ذهنها آنذاك ، فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجَّها إلى الله . ذلك أنها ان تستطيع أن تتحدث عن حبها لله إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عانتها . وتلك كانت تجربتها العنفية الحية . تَحْدُثُ هنا ظاهرة القلب للموضوع ، مما يحدث دائماً فى أمثال هذه الأحوال ، إذا كانت العبارة مخلصة وليس مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة . ولهذا فإذا صادف المؤرخ إخلاصاً فى التعبير عند الصوفى ، فيجب عليه دائماً أن يفترض وجوب تجارب حية صـــدر عنها ، فقَلَبَ موضوعها من المحسوس الإنسانى إلى الكائن الأعلى الإلهى . ويمكن تأريخ ما يدخل فى هذا الباب وفقاً لتضاؤل التعبير الحسى الظاهر وتزايد التعبير المجرد الباطن ، ولهذا فنحن لانرى مانعا أولاً من أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى رابعة — فليس ثمت استحالة مادية تقف دون هذا ؛ ونرى ثانياً أنه لابد أن ينتسب إلى فترة الانتقال المباشرة بين عهد الضلال وعهد الإنابة والتوبة .

كل هذا من حيث الصورة . والأمر من حيث المادة يؤكد تلك النتائج . فهى تذكر الإطار الغرامى الملائم : هدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، لأنها طالما ألفت هذا الإطار الشعرى الرائع فى أيام غرامها الآثم ؛ وهذا يدلنا على أنها

حديثة عهد به ، وأنها لا تزال تحنُّ إليه فى أعماق نفسها ، ولعلها تذكرت لياليها الحُمْرَ بين مخارف النخيل على ضفاف الأُبُلّة ، وقد غَفَلَتْ عيونُ الرقباء من الناس ومن الشُرْطة خاصة كما يتبين فى عبارتها ذات الدلالة الكبيرة هذه : « وغَلّقت الملوكُ أبوابَها » ، أى اختفى سلطان الحاكم ، ففي وسعها أن تختلى بحبيبها تساقيه ما تود من اللذات المحرّمة . وتأمّل خصوصا الشوق المتحسّر فى قولها : « وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه ! » ففيه قُشَعْريرة قلبٍ طالما نَعِمَ بهذه اللحظات العالية ! أتراها نادمة فى قولها هذا ؟ كلا ، بل هى قلقة لا تزال موزّعة الأهواء بين الدنيا والآخرة ، وحبيبها الجديد لا يزال بمنأى عنها لأن الطريق إليه شاقة طويلة ؛ وها هى ذى تتضرع إليه فتقول : «وهذا مقامى بين يديك!» أية لوعة فى هذه العبارة النارية ! وأية صورة فاتنة تستثيرها فى الخيال !

لقد بدأت رابعة تستشعر الحب لله ؛ وإنه لينمو وتواكبه مشاعر مختلطة ، لعل من بينها ومن أقواها الشعور بأنها نذرت نفسها لهذا الحب الأسمى ، وعما قليل ستُعْلَن خِطْبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضى فى النهاية إلى الزواج الروحى بينها و بين الله .

إنها لم تبلغ بعدُ تلك المرحلة من التفكير فى الاقتران بالله ؛ ولا بد أن تأتى حَيُّونة — صديقتها الهائمة فى أودية العشق الأتَمّ consommé ، فتنبهها إلى هذا المعنى . ذكر أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابورى (١) أن رابعة زارت حَيُّونة ؛ « فلما كان جوفُ الليل حَمَل النومُ على رابعة؛ فقامت إليها حَيُّونة فركلتها برِجْلها وهى تقول: قومى ! قد جاء عُرْسُ المهتدين . يامن زَيَّن عرائس الليل بنور التهجُّد! »

وهذا نص على أكبر درجة من الخطورة لأنه يتحدث عن وجود فكرة الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى

---

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى : « عقلاء المجانين » ، نشرة وجيه الكيلانى ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ م .

أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ابتداءاً من القديسة تريزا الأبيلاوية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون . و إذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيات المسلمات فى القديسة تريزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وندع هذا النص جانباً الآن ، ونعود إلى النص السالف ، فنراها بعد أن تقبل على صلاتها حتى مطلع الفجر تسأل الله هل قبل منها ليلتها فتهنأ ، أم ردها عليها فتأسى . و إنها لتعاهد الله على أن تكون راضية بكلتا الخصلتين : فسواء لديها أَقَبِلَ الله أعمالها أم لم يقبلها ، فستلحّ وتناضل ، لأنها تجد فى هذا الجهاد النفسى وحده معنى حياتها ، ولا عليها إن كُلّل بالقبول أو لم يكلّل . ولذا تقول بعبارة تنم عن إخلاص لا حد له فى العبادة : « وعَزَّتك ! لو طردتنى عن بابك ، ما برحتُ عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك » . وهنا يتجلى التواضع عندها بأجلى صوره . وما أبعد الفارق بينها و بين الحلاج مثلا لما أن قال : « يا أهل الإسلام ! أغيثونى ! فليس (ى الله) يتركنى ونفسى فآنَسَ بها ، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيقه[1] » . ففى هذه النبرة من الادّعاء والكبرياء ما لا يتفق وروح رابعة ، على الأقل فى الفترة التى لا نزال بصددها . فالدلال فى هذه العبارة الحلاجية هو بالأحرى من جانب الحلاج على الله ، أما رابعة فالله هو الذى يتدلل عليها ، لذا تدعوه وترجوه بكل خشوع وذل وضراعة . وتلك هى الدرجة العليا فى الصلة بين العبد والربّ ، فى صلة الحب الحقيقية التى لا تستلزم تبادلا و إلا صارت إلى حال من السكون هو والموت سواء . إنما الحب الحقّ هو ذلك الذى يتألم فيه أحد الطرفين دون أن ينال شيئاً ، لأنه إذا تم التبادل فسد معنى الحب . وهذا

---

(١) ماسينيون وكراوس : «أخبار الحلاج» ، تحت رقم ٣٨ ، باريس سنة ١٩٣٦ .

أمر قد فصلنا القول فيه فى موضع[1] آخر فلا مجال بعدُ لفضل بيان . ورابعة هنا تريد أن تؤكد هذا المعنى بكل قوة ، وفى توكيدها له تريد أن تدلّ على معنيين : الأول النزاهة المطلقة فى صلة الحب بحيث لا يُقصد من ورائه جزاء ، ولا حتى مجرد التبادل فيه ؛ الثانى أن الحب الصحيح هو ذلك الذى يستبعد كل تبادل . وكأنها كانت تريد من الله أن يقول لها ما قالته فيلين فى « ڤلهلم ميستر » لجيته : « إذا كنتُ أحبك فهل هذا يعنيك ؟ »

ولكى نزيد هذا المعنى فى نص رابعة إيضاحاً وبروزاً نود أن نضع إلى جواره نصاً آخر لصوفى كبير هو أبو سليمان الدارانى (المتوفى سنة ٢١٥ هـ = سنة ٨٣٠ م) يكاد أن يتشابه مع نص رابعة فى بعض حروفه ، لكن لشتان ما بين المقصود فى كل منها ! قال القشيرى : « حَدَّث أحمد بن أبى الحَوارِى قال : دخلت على أبى سليمان الدارانى وهو يبكى ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ! ولِمَ لا أبكى ، وإذا جَنَّ الليلُ ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجَرَتْ دموعُهم وتقطرت فى محاريبهم ، أشرف الجليلُ سبحانه وتعالى — فنادى : يا جبريل ! بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى ، وإنى لَمُطَّلِع عليهم فى خلوتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ؛ فلِمَ لا تنادى فيهم يا جبريل : ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذّب أحباءه ؟ أم كيف يجمُلُ بى أن آخذ قوماً إذا جَنّهم الليلُ تملقوا لى ؟ فبى حلفتُ أنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفنّ لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم »[2] . فهنا نرى الدارانى يلجأ إلى أمثال هذه الأحاديث القدسية التى بدأ الصوفية فى إذاعتها على أنها من وحى الله لهم[3] كما يجد عزاءاً فى تبادل الحب بين الله وبينه هو ومَن

(١) راجع كتابنا : « الزمان الوجودى » ، ص ١٤٦ . القاهرة سنة ١٩٤٥ .

(٢) « الرسالة القشيرية » ص ١٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٠

(٣) راجع : ماسينيون : « بحث فى نشأة المصطلح الفنى للصوفية فى الإسلام » ، باريس سنة ١٩٢٢ .

على شاكلته من أهل المحبة . وفى هذا نجد تراجعاً عن ذلك المعنى الجليل الصافى الذى أعطته رابعةُ للحب الإلهى .

وهذا كله فضلاً عن معانى القلق والاضطراب واللهفة التى تشيع فى عبارات رابعة فى ذلك النص ، مما يصف حال العاشق القلق أدق وصف . على أن فكرة الحب لم تكن بعد قد اتضحت فى نفس رابعة ، إنما هى معانٍ امتلأت بها نفسها ولما تَسْتَحِلْ إلى صورة عقلية بادية الأسارير .

— ٤ —

بدأت رابعة إذن فى التوبة ، وفتحت صفحة جديدة من حياتها الروحية هى مزيج من القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الجديد الذى اتخذته لنفسها .

فإذا حاولنا تعرُّف العناصر الجديدة فى حياتها وما اتخذته من وسائل للسير فى الطريق إلى الله لم نعثر إلا على أخبار متناثرة ، سنحاول مع ذلك ، جهدَنا ، أن نستخلص منها ماقد يجلو هذا الجانب .

أما الأدوات التى اصطنعتها فهى التهجد وقيام الليل : تصلى وتدعو وتقرأ ما تيسر من آى القرآن . ثم استذكار الموت.

فكل المصادر تجمع على أنها كانت تقوم الليل كلّه . قال ابن الجوزى فى « صفة الصفوة » بعد سلسلة من الأسانيد تنتهى عند عَبدة بنت أبى شوّال ، وكانت من خير إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : « كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر ، هجعت فى مُصَلّاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لاتقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

قالت: فكان هذا دأبها، دهرها، حتى ماتت»[1]. ويلوح أنها كانت حريصة كل الحرص على هذا التهجد. ويدل على هذا أنها ما كانت تنقطع لحظة عنه حتى تشعر بالزواجر تترى عليها لتردها إلى سالف سُنّتها. ولعل أبلغ دلالة على هذا مارواه صاحب «مصارع العشاق»[2] من أنها كانت قد انقطعت عن قيام الليل إثر علة، فرأت في منامها حلماً مغزاه أنها بانقطاعها عن الليل قد جرّت عليها غضب السماء وكادت تفقد بهذا ماحصلته من قبل بتهجدها. ولهذا أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة إبان هذه الرؤيا وقد رأت انصراف الوُصَفَاء عنها تؤنبها بهذه الأبيات:

صلاتك نورٌ والعباد رقود ونومُك ضد للصلاة عنيد
وَعمْرُكَ غُنْمٌ إن عقلتِ وَمَهْلُهُ يسير ويفنى دائماً ويبيد

ثم غابت عن بين عينيَّ؛ واستيقظتُ حين تبدى الفجر. فوالله ماذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرتُ نفسي. قال: ثم سقطت رابعةُ مغشياً عليها».

ورابعة في هذا لم تكن تفعل غير ما سنه القرآن وأتت به السُنَّة وسار عليه الصحابة والتابعون. فالآيات التي تحث على قيام الليل عديدة منها: «والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً» (الفرقان: ٦٥)؛ «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» (السجدة: ١٦)؛ والأحاديث لاتكاد تحصى مثل: «عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم، وهو دأب الصالحين قبلكم؛ ومنهاة عن الإثم؛ وملغاة للوزر؛ ومُذهِبُ كيد الشيطان؛ ومَطْرَدة للداء عن الجسد». وبالغ التابعون في هذا حتى ليذكر

---

(١) ابن الجوزي: «صفة الصفوة» جـ ٤ ص ٥٨ ب، مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ. وأورده ابن خلكان: «وفيات الأعيان» جـ ١ ص ٢٥٦، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م، وابن تغري بردي: «النجوم الزاهرة»، جـ ١ ص ٣٣٠، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩.

(٢) أبو محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج القاري: «مصارع العشاق»، ص ١٣٦، طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م.

عن أربعين منهم أنهم كانوا يُصَلُّونَ الغداة بوضوء العشاء ، منهم سعيد بن المسيَّب والفُضَيْل بن عياض ووهيب بن الورد وأبو سليمان الدارانى وأبو حنيفة ، وهم جميعاً ينتسبون إلى عصر رابعة ؛ فعادة قيام الليل إذن كانت منتشرة عند كل الصالحين سواء أكانوا من أهـل الطريق فعلا أم لم يكونوا . وإنا لنجد كثيراً من المؤلفين فى التصوف يكرسون فصولا طوالا لمسألة قيام الليل ، ولنذكر على سبيل المثـال صاحب « عوارف المعارف » الذى عقد أربعة أبواب لقيام الليل[١] .

وكان قيامها الليل إما مفردة وحيدة أو مع أصحابها وصواحبها . أما أصحابهـا فمن بينهم سفيان الثورى فيما رواه العطار فقال : « قال سفيان الثورى : كنت عند رابعة ذات ليلة . فصلَّتْ حتى مطلع الفجر ؛ وصليت أنا كذلك . وفى الصبح قالت : علينا أن نصوم اليوم شكراً على هـذه الصلوات التى أقمناها الليلة[٢] » . وهو يروى كذلك حدثاً مشابهاً مع الحسن البصرى يقول فيه : « يروى أن الحسن البصرى قال : بقيت يوماً وليلة عند رابعة نتحدث عن الطريق وأسرار الحق بحرارة بلغت حداً نسينا معه أننى رجل وأنها امرأة . فلما فرغنا من الحديث شعرت بأننى لم أكن إلا فقيراً ، بينما هى كانت غنية بالإخلاص[٣] ». وهذه الرواية لا يمكن أن تكون صادقة من الناحية التاريخية فى نظرنا لأنها تجمع بين الحسن البصرى ورابعة ، ونحن ممن يرجحون أن تكون وفاتها سنة ١٨٠هـ أو سنة ١٨٥هـ لا سنة ١٣٥ هـ كما يود أولئك الذين يريدون أن يجمعوا بينهما حتى يفسروا ورود أخبار لها مع الحسن البصرى — وسنرى أدلة ترجيح رأينا بعد حين . ولذا سنرفض كل ما يروى من أخبار لرابعة مع الحسن البصرى . وإنما صيغت هـذه الرواية ، كما صيغ أمثالها ، من أجل التمجيد لكلتا هاتين الشخصيتين الكبيرتين .

(١) من ٤٥ إلى ٤٨ ، ص ٢٥٠ إلى ص ٢٦٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩ م.
(٢) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، (راجعه بعد) نشرة نيكولسون .
(٣) المرجع السالف .

على أننا نستطيع مع ذلك أن نستخلص من هـذا الخبر أنها كانت تمضى الليل أحياناً بصحبة بعض الصالحين . أما الصواحب فقد روت لنا المصادر من بينهن حيونة[٣] — كما أشرنا إلى هذا من قبل — وهى التى يذكر عنها فى هذا الخبر أنها كانت أقدر على قيام الليل من رابعة .

على أنه يلوح أن رابعة لم تكن تقوى على الاستمرار فى هذا التهجد ، خصوصاً لما بالغت فى الزهادة فهزل بدنها وضعفت مُنّتها فلم تعد تقوى على السهر الدائم . وآية ذلك ما روى عن أخبار بعض اللصوص معها ؛ هذا إن صحت هـذه الأخبار ، وإن كان الأرجح أنها من نسج خيال القصاص استنباطاً للعبرة فى هذه الأحداث التى جرت لها معهم أو بياناً لكرامات لها أرادوا نسبة وقوعها إليها .

ذلك فيما يتصل بالتهجد الذى كان يُقضى فى قراءة القرآن وذكر الله . لكننا لا نستطيع أن نعرف بالتفصيل من أى شىء كان يتكون هذا الذكر . فالسماع بالمعنى المعروف بعد ذلك عند الصوفية لم يكن قد نظم على هيئة حلقات ، إذ أن أول حلقة للسماع أنشأها صديق للسَّرِىّ السَّقَطِى (المتوفى سنة ٢٥٣ هـ) فى بغداد ، وهو على التنوخى . أما مجالس الذكر فكانت قد أنشئت ، منها مجلس الحسن فى مسجد البصرة الجامع ، ومنها مجلس الذكر الذى أقامه عيسى بن زاذان فى الأُبُلَّة حوالى سنة ١٢٠هـ . ولابد أن يكون الذكر قد تطور فى هذه المجالس فلم يعد يقتصر على مجرد تكرار اسم الله وما يشابهه من الصيغ البسيطة ، خصوصاً ونحن نعلم أنه قد بدىء بإقامـة رُبُطٍ ، فكان أول رباط أنشىء حوالى سنة ١٥٠ هـ فى عَبَّادان على يد تلامذة عبد الواحد بن زيد ، صديق رابعة ، وهو الرِّباط الذى ظفر بشهرة واسعة حتى كانت للصلاة فيه فضيلة وميزة ، ويلوح أن الزَّنجَ فى ثورتهم هم الذين

(١) أبو القاسم النيسابورى : « عقلاء المجانين » ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ .

هدموه سنة ٢٦٠ هـ[1] فلا بد أن تكون قواعد الذكر، ولو فى صورة أولية، قد صيغت وتطورت فى هذا الرباط، ولابد أن تكون رابعة على صلة بما يجرى فيه: أولاً لصلتها بعبد الواحد بن زيد شيخ الذين أنشأوه، وثانياً لكونه فى عَبَّادان أى فى ضواحى البصرة، فمن الطبيعى أن تكون على صلة به، وإن كانت لم تدخله مرابطة، لأن الأخبار لاتحدثنا عن نزولها به، ولعل وصفها امرأةً لم يكن يجوِّز لها الاتصال به، كما أن الأخبار لم تحدثنا عن نزولها بغير بيتها الذى أتينا على وصفه فى مستهل هذا الحديث، اللهم إلا أن نفترض فى هذا «الكوخ» نوعاً من الصومعة أو الدويرة، وهو افتراض لاينهض لأن صلاتها العديدة برجال عصرها تنفى عنه هذه الصفة، فضلا عن أن أخبارها تتحدث عن جيرة لها؛ فمن المستبعد أن يكون «كوخها» هذا صومعة أو دويرة بالمعنى الحقيقى. إنما عكفت على نسكها وانقطعت للعبادة فى بيتها بالبصرة؛ ونميل إلى تحديد مكانه فى القسم الغربى من المدينة، بعيداً عن الحى اللاهى الذى هجرته مادامت هجرت نوع الحياة فيه.

أما الأداة الأخرى التى كانت تستخدمها للتواجد فهى كما قلنا استذكار الموت. ولهذا اتخذت مشجب قصبٍ طوله من الأرض قدر ذراعين عليه أكفانها كيما تتأمله على الدوام فتتعظ بكل المعانى التى تتضمنها فكرته، وتجتنب أحوال الخوف والفزع والإغماء والبكاء التى كانت تستدعيها إمعاناً فى الضراعة. ويلوح أنه كان له أثر شديد فى نفسها: فبه كانت تستدعى البكاء مبتهلة ومصلية. قال المناوى: «وكان كفنها لم يزل عندها، ويجدون محل سجودها كالماء المُسْتَنْقَع من كثرة البكاء[2]». ولقد كان عصرها عصر بَكَّائين، خصوصاً أصدقاؤها مثل

---

(١) راجع فى هذا كله: ماسينيون، «بحث فى نشأة المصطلح الفنى للتصوف فى الإسلام» ص ١٣١ و ١٣٦، باريس سنة ١٩٢٢.

(٢) عبد الرؤوف المناوى: «طبقات الصوفية» ورقة ١٠٥ ا — ب، مخطوط بالظاهرية برقم ٤١٦٤ عام.

رياح بن عمرو القيسي الذى « كان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرك فى مأتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا[1] » . ولعل الحسن البصرى قد كان من أول الذين بدأوا هذه السلسلة الحافلة من البكائين الذين زخر بهم القرن الثانى للهجرة فى مدينة البصرة . ويلوح أن انتشار هذا البدع إلى أبعد حد هو الذى حال بين رابعة وبين التجديد فى هذا المضمار . فلقد كان ينتظر منها — وقد كانت عازفة — أن تستعين فى التواجد بأدوات السماع ، لكن يظهر أن طبيعة العصر — بما طبع عليه من قسوة وميل إلى الحزن والبكاء والصراخ والإغماء وبالجملة كل ما يتصل بالأحزان والغم — قد فرض عليها فرضاً أن تتابع السُّنة الجارية والعادة المتبعة ، وإلا كانت فى خطر ألا ينظر إلى أعمالها على أنها تندرج فى باب التقوى . ويبدو كذلك أنها لم تكتفِ باتخاذ ما كان جاريا ، بل بالغت فيه كما تفيض بهذا أخبارها وأحكامها على زهاد عصرها . فهى كانت تسمى عبد العزيز بن سليمان الراسبى ، من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة ، باسم سيد العابدين ، وهو قد « كان إذا ذَكَرَ القيامة والموت صَرَخ كما تصرخ الثكلى ويصْرُخُ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع الميِّتُ والميتان من جوانب المسجد[2] » . فيشبه أن يكون تقديرها له كلَّ هذا التقدير إنما كان لإفراطه فى البكاء والصراخ والفزع من الموت .

على أننا لا ندرى إلى أى مدى أثر تأمل الموت هذا فى تكييف حياتها وتصوير نظرتها فى الوجود . إذ يلوح أن الأمر لم يكن يتجاوز الجانب العاطفى دون أن

---

(١) المناوى : المرجع السابق ، ورقة ١٠١ ب .

(٢) راجع : ابن تغرى بردى : « النجوم الزاهرة » ، ج ٢ ص ١٥ س ١٤ س ١٥ ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ ، تحت سنة ١٥٠ هـ التى توفى فيها عبد العزيز الراسبى هذا . وهو ينقل هذا الخبر عن أبى المظفر عبد الرحمن ابن الجوزى فى « مرآة الزمان » .

يتحول إلى تفكير نظرى فيما ينطوى عليه معنى الموت ، أو على الأقل ليس لدينا من الأقوال مايبين لنا عن نتائج تأملها فى الموت والفناء . فكانت تستعينه لمجرد استدعاء الأحوال الوجدانية ، مما كان يولد فى نفسها خوفاً هائلا . و إلى هذه الفترة يجب أن نعزو ماينسب إليها من أوصاف وأقوال تتصل بالخوف وخشية النار والشعور بالعدم . قال المناوى : « وكانت شديدة الخوف جداً . فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها[1] » . وهى أقوال لا تتفق مع الأقوال الأخرى التى تنسب إليها عن نظريتها فى النار . ومعنى هذا أننا الآن بإزاء مرحلة التكوين فى نظرتها الجديدة فى الحياة الصوفية .

ومرحلة التكوين هذه ، فى هذه النقطة كما فى السابقة (أى فى التهجد وقيام الليل وفى تأمل الموت) ، إنما كانت لاتزال فيها تسير على سُنَّة العصر ، بل والجيل الذى قبله ، فعند الخوارج كما عند بقية الصالحين نجد هذه الأحوال كلها . إن رابعة لم تكتشف بعدُ طريقها الحقيقى . ذلك عهد الطلب عندها .

— ٥ —

أما عهد التنقل فقد بدأ لما أن ذهبت إلى الحج . متى تم هذا وكم كان عمرها ؟ هذا ما لا تكشف الوثائق عنه . على أنه لا يمكن أن يتعدى هذه المرحلة المباشرة لوقت التوبة ، لأن فريضة الحج بالنسبة إلى الصوفى من الفرائض الضرورية فى مستهلّ الحياة الروحية . على أن حجّها كان فى البدء لمجرد إتمام الواجبات الدينية ؛ ولا يمكن أن نفترض فى حجاتها الأولى أنه وقع لها تلك الكرامات المزعومة التى تنسب إليها فى عدة روايات .

إنما يلوح أن معنى الحج قد تطور فى نفسها شيئاً فشيئاً سنة بعد سنة ،

(١) المناوى : « طبقات الصوفية » ، ورقة ١٠٤ ب .

فتضاءل الجانب المادى وازداد الجانب الروحى المجرّد . ولن نستطيع أن نتابع مراحل هذا التطور ونرسم له المُنْحَنِى بالدقة ، خصوصاً لأن الروايات الخاصة بحجها توغل فى أعماق الأساطير ، لأنها تتعلق بكرامات وقعت على يديها ، مثل ما رواه العطار [1] من أنها ارتحلت ذات يوم إلى الكعبة ومعها حمار يحمل متاعها . فنفق الحمار فى الطريق ، فقال أصحاب القافلة : سنحمل متاعك على دوابّنا . فقالت رابعة : ما كان اتكالى عليكم لما أن رحلت ؛ بل ثقتى بالله تعالى . فارحلوا إذن وحدكم . فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله وهى تقول : « إلٰهى ! أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، وها أنت ذا تدع حمارى ينفق فى الطريق وتدعنى فى الفيافى وحيدة ! » . فما أتمت هذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة .

تلك وأمثالها من الروايات القائمة على الكرامات لا يمكن أن نقيم لها وزناً . لكن يمكن أن نأخذ منها أن رابعة كانت لا تزال تغدو إلى الحج على دابة . وثمت روايات أخرى تقول إنها ذهبت وهى تتقلب على أضالعها . قال العطار [2] أيضاً : « روى الشيخ أبو على الفارمذى [3] أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعةُ ناحيةَ الصحراء ، وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة فى سبعة أعوام » . ولهذا يجب أن نفترض — على صحة هذه الرواية — أنها قد انصرفت عن اتخاذ المطايا وهى غادية إلى الحج . لكن هذا يجب أن ينسب إلى دور متأخر لما أن دخلت فى دور الزهادة الكاملة .

ونتابع فى هذا الموضع تطور معنى الحج عندها حتى آخر حياتها على افتراض

---

(١) فريد الدين العطار . « تذكرة الأولياء » ، جـ ١ ص ٦١ نشرة نيكولسون .

(٢) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٦٢

(٣) هو أبو على الفضل بن محمد الفارمذى تلميذ أبى القاسم القشيرى وأستاذ الغزالى . راجع عنه ما ورد فى كتابنا : « شخصيات قلقة فى الإسلام » ، ص ١٤٠ تعليق .

أن ذلك كان فى توازٍ مع تطور حياتها الروحية نحو زيادة التجريد والتنزيه والعزوف عن الدنيا والتجرّد عن كل مافيها. ونستطيع أن نقسم هذا التطور إلى ثلاث مراحل:

فالمرحلة الأولى كانت فيها تؤدى تلك الفريضة كما يؤديها بقية الناس ، ولاتكاد ترى فى الحج إلا مايراه المسلم العادى من التبرك بزيارة البيت العتيق وقبر الرسول واستعادة آثار الإسلام الأول وإحياء معانى الإيمان الوليد ليزيد المرء إيمانا وتقى ، فضلاً عن فوائد الاجتماع بالناس وما إلى هذا مما يعرفه الناس العاديون للحج من فوائد . وهى إذن لم تكن تفعل إلا مايفعله بقية الناس ولم تَهَبْ الحجَّ بعدُ معنى روحياً خاصاً . ولهذا تقع هذه المرحلة فى العهد التالى لتوبتها مباشرة ؛ ويجوز أن تكون هذه المرحلة قد امتدت سنوات يقدر عددها بمقدار تعلّقها بعدُ بالأوضاع الحِسّية فى الدنيا ، أى أنها تقع فى عهد الطلب والتنقل الأول . وهى كانت لاتزال ترى أن للقيام بالحج ثواباً شرعياً كبقية أركان الدين . ولعل مما يمكن نسبته إلى هذا الدور قولها : « إلٰهى ! وعدت بجزاءين لأمرين : القيام بالحج والصبر على الشدائد . فإن لم يكن حجّى صحيحاً مقبولاً عندك ، فياويلتاه وما أشد هذه المصيبة عندى ! لكن ماجزاء هذه المصيبة ؟ »(١) . فهذه صرخة من أعماقها تدل على أنها لاتزال تحرص على المعنى الحسى المادى فى الحج .

ثم كانت المرحلة الثانية لما أن بدأت تؤدى الحج على قدميها أو متقلبة على أضلاعها وما إلى هذا من أنواع التعذيب التى يرى الصوفى أنها ضرورية لمضاعفة ثواب الحج . فإبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه أمضى أربعين سنة فى حجة واحدة لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين . وكان يقول : « غيرى يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسى »(٢) . ومع إسقاط عنصر المبالغة الضرورية

---

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » جـ١ ص ٦٢ .
(٢) العطار : المرجع نفسه ، جـ١ ص٦١ .

فى مثل هذه الأحوال — طبعاً فى هذه الرواية ! — فإنها يمكن أن تشير مع ذلك إلى أن الصوفية كانوا يَفْتَنُّون فى التعذيب لأنفسهم وهم بسبيل الحج حتى يزداد الأجر و يضاعَف الثواب . والعطار يروى هذا الخبر ليربطه بكرامة أخرى لرابعة وهى أن الكعبة قد ذهبت بنفسها للقاء رابعة واستقبالها ، ولهذا لم يجدها إبراهيم ابن أدهم فى مكانها بعد هذا الجهد الشاق كله !

أمّا وقد ارتفعت حرارة إيمانها وازدادت شعوراً بنفسها بفضل هذه المجاهدات التى فرضتها على نفسها وهى بسبيل الحج ، فقد كان من الطبيعى أن يعلو معنى الحج فى نفسها . فبعد أن كانت فى المرحلة الأولى تطلب الكعبة لرؤية الكعبة ، صارت تداعبها الآن فكرة طلب الكعبة لرؤية رب الكعبة . روى العطار(١) فقال : كانت رابعة فى طريقها إلى الكعبة ذات يوم ، فبقيت وحدها فى الصحراء ، وشعرت الوحشةَ فصاحت : «إلهى ! إن قلبى ليضطرب فى هذه الوحشة . أنا لَبِنَةٌ والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ! » فناداها صوت من عند الله تعالى يقول : « يارابعة ! أتطلبين وحدك مايقتضى دم الدنيا بأسرها ؟ إن موسى حين رام أن يشاهد وجهنا ، لم نُلْقِ إلا ذرة من نورنا على جبلٍ فَخَرَّ صَعِقاً ! » . فى هذه الرواية نرى رابعة تتحدث عن الكعبة على أنها حجر فحسب ، أى أنها بدأت تتخلص من التلبّس بالمعنى الحِسّى فى الحج . والرواية الأخرى التى يرويها العطار نقلاً عن الشيخ أبى على الفارمذى فيما يتصل بتقلبها على أضلاعها سبعة أعوام يمكن أن تندرج تحت هذا المعنى عينه . فهى فى هذه المرحلة الثانية إذاً قد جردت الكعبة عن مادتها وأبقت لها معناها . وهى لاتزال تؤمن بفائدة الحجّ إليها.

أما فى المرحلة الثالثة والأخيرة فقد زال كل معناها وعادت لاترى للكعبة معنى. ذكر العطار قال : « يروى أن رابعة كانت بسبيل الحجّ فرأت الكعبة قادمة

---

(١) « تذكرة الأولياء » : جـ١ ص٦٢ — ص٦٣ .

نحوها عبر الصحراء ، فقالت : « لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ ! » ولم تشأ أن تنظر إليها »[١] . هذه فكرة على أكبر درجة من الخطورة ، إن صحت الرواية التي أوردها العطار ، وليس بمستبعد أن تكون صحيحة ، فهي نفس الفكرة التي لعبت دوراً خطيراً في مذهب الحلاج وكانت من بين أسباب تكفيره ثم صلبه . ذلك أن الحلاج بعد أن حج للمرة الثالثة والأخيرة اعتقد « أن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو عقلياً في نفوسنا صورةَ الكعبة كما نجد « مَن » أقامها، وأن نحطم معبد بدننا كما نبلغ «مَن» جاء إليه ليتحدث إلى بني الإنسان »[٢] .

فها هي ذي رابعة قد امَّحَتْ في نفسها صورةُ الكعبةِ لأنها تريد أن تجد من أقامها . وبهذا تطور المعنى الحسي للحج فأصبح مجرد مناسبة لرؤية الله ، بل صار في وسعها أن تستغنى نهائياً عن هذه الفريضة لأنها ستجد الله في نفسها ، فما حاجتها بعدُ إلى مشاهدته عند الكعبة ! وهذا كله كانت تواكبه عمليةُ التنزيهَ المستمر والتجريد المتصل في فهمها لسائر معاني الحياة الروحية .

ولعل هذا التطور في التنزيه والتجريد قد بلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية قال : « قال على الحريري : قيل عن رابعة إنها حَجّت فقالت : هذا (أى البيت الحرام) الصنمُ المعبود في الأرض، وإنه ماوَلَجَهُ اللهُ ولاخلا منه »[٣] . وهذا يؤيد الرواية التي ذكرها العطار ، وفيه من الجرأة في التعبير قدر هائل يدل على أى مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لانجد لها نظيراً في هذا القرن ولا في الذى يليه عند الصوفية ؛ ولعله لم يظهر بوضوح لأول مرة إلا ابتداءاً من الحلاج . كيف لا ، وهى ترى فى

---

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، جـ١ ص ٦١ .

(٢) ماسينيون : «المنحنى الشخصي لحياة الحلاج» في كتابنا «شخصيات قلقة في الإسلام» ص٦٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٣) ابن تيمية : «الرد على الحريرية» ، ورقة ٩١.٦٥ (أورده ماسينيون في : «مجموع نصوص غير منشورة خاصة بالتصوف الإسلامى » ص٨ برقم٨) .

الكعبة صنماً وفى التبرك بها وثنية ؟! إن بين هذا و بين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية فى الحياة الدينية لخطوة واحدة سنراها عما قليل تخطوها بثبات جَنان لتوافر ثقتها بنفسها كلما أوغلت فى الطريق إلى الله .

منذ ذلك الحين ورابعة لاتنشد من الحج سوى وجه الله ، وترى نفسها جديرة بهذه المشاهدة ، لا لأنها أسرفت فى قيام الليل وتعذيب الجسد و إماتة كل إحساس بالدنيا فى قلبها ، — فهذه مرتبة تستوى فيها مع المتصوفين عامة — ، إنما لأنها قد آلت إلى حالٍ من التجرد الكامل والتنزيه الخالص بحيث صارت روحاً نورانياً أقرب ما يكون إلى جوهر الألوهية ، والشبيه يدرك الشبيه ، فلِمَ لا تطمح عن جدارةٍ إلى معاينة سُبُحات وجه ربّها ؟ ! وعلى ضوء هذا نفسر تلك الأسطورة التى رواها العطار وأشرنا إليها منذ قليل ، والتى تقول إن إبراهيم بن أدهم أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، ولما بلغها لم يجدها فى مكانها فقال نائحاً شاكياً : « واأسفاه ! أأظلم بصرى حتى لم أعُدْ أرى الكعبة ؟ » فسمع صوتاً يقول : « ياإبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة ذهبت للقاء رابعة » . فتأثر إبراهيم ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها ، وشاهد رابعة تتقدم مستندة إلى عصا ، فقال لها : «أى رابعة ! ياالجلال أعمالك ! ثم وماتلك الضجة التى تحدثينها فى الدنيا ! فالكل يقولون : ذهبت الكعبةُ للقاء رابعة » . فأجابته رابعة قائلة : « ياإبراهيم ! وماتلك الضجة التى تثيرها أنت فى الدنيا بقضائك أربعين عاماً حتى تبلغ هذا المكان؟ ! فالكل يقولون : إبراهيم يتوقف فى كل خطوة ليصلّى ركعتين . » فقال إبراهيم : « نعم أمضيت أربعين ربيعاً أجتاز هذه الصحراء » . هنالك قالت رابعة : « ياإبراهيم ! لقد جئتَ أنت بالصلاة ، أما أنا فقد جئتُ بالفقر » ؛ ثم ذَرَفَتْ مُرَّ العَبَرات[1] » . فقولها هنا : « لقد جئتَ أنت بالصلاة ، أما أنا فقد جئتُ بالفقر »

(١) فريد الدين العطار : «تذكرة الأولياء»، نشرة نيكولسون ، جـ١ ص٦١ — ٦٢ .

فيه أبلغ دلالة على مرتبة التجريد والتنزيه التى بلغتها ، إن صحت هذه الرواية ؛ أو التى ظن الكتاب المؤرخون للصوفية أنها بلغتها بالنسبة إلى إبراهيم بن أدهم وهو من هو زهداً وعلوّ كعب فى الطريق — إن لم تصدق هذه الرواية . ذلك أنها تقصد من قولها إنه جاء الكعبة ومؤهلاته الصلاة أنه لا يملك إلا هذه الشعائر الدينية والمراسم والطقوس يؤديها بمعناها الظاهر دون أن يجردها ويرفعها إلى المعنى الباطن؛ أما رابعة فقد ارتفعت فوق هذه الدرجة التى تقوم على الظاهر المحسوس ، إلى درجة عليا استحال فيها المرَسَم الدينى إلى رمز ، وآضت فيها الشعيرة من شعائر الإيمان إلى معنى مجرد . « فالفقر » هنا هو « الفقر من المادة » أى التجرد عنها نتيجةً للتجرد عن الدنيا ، هو التروحُن المستمر ، هو الشفوف الذى يطّلع على النور الأعلى. ورد فى « جامع الأصول » أن الفقر أصله رجوع العبد « إلى عدمه الأصلى بحكم السبق الأزلى ، حتى يرى وجوده وعمله وماله ومقامه كلّها فضلاً من الله وامتناناً محضاً [1] »، فيشعر بارتداده إلى حال العدم الأصيل لما أن كان إمكاناً محضاً ، ويفنى فى صفات الألوهية ، ويطمس فى عين الجمع الأحدية ، فيكون على أتم إعداد لقبول الاتحاد بالألوهية — وهذا هو معنى مشاهدة الله وجهاً لوجه : فهو امتزاج الواحد بالآخر إبان لحظاتٍ تطول وتقصر وتقل وتكثر وفقاً لما يهبه الله من لطف من لدنه بالعبـــد المتجرد فى حضرته . إن إبراهيم كان لا يزال يرسف فى قيود الشعائر لأنه يرى الغاية فى أداء التكاليف ، أما هى فقد تجاوزت نطاق المراسم إلى المعانى الثابتة فى ملكوت الأزل قبل الخلق الزمانى ، وتجردت عن الأعيان الزائلة كيما تحيا فى الأعيان الثابتة وهى حقائق الممكنات فى علم الحق تعالى ، هى الوجود الماهوى (Existenz) الذى تسوده الطهارة والبكارة .

---

(١) الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانلى : « جامع الأصول فى الأولياء »، ص٣٠١. القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م .

لتستغن عن الكعبة إذاً : فالحضرة تنشد فى أى مكان . لقد كان هذا البيت العتيق ، «هذا الصنم المعبود على الأرض» ، بمثابة أداةٍ تعينها على السباحة فى بحر الألوهية الزاخر ، وجناح صناعى تذرعت به ريثما ينبت فى جناحيها الطبيعيين الريش . أما الآن وقد بلغت ما بلغت ، فلتطرحه . وهـــذا معنى إقبال الكعبة إليها ، أى أنها لم تعد فى حاجة إلى الانتقال كيما تنعمَ بالحضرة ، بل ستتفقدها أياً كانت هى .

لقد بلغت مرحلة التبادل بين الحضرة و بينها . كانت تقبل على الكعبة ، و إذا بالكعبة هى التى صارت تقبل عليها . أقبلت عليها فى ذلك العام ، فعليها أن ترد لها الزيارة . قال العطار بعد ذلك مباشرة : « وفى السنة التالية قالت : لما كانت الكعبة قد أقبلت إلىّ فى العام المنقضى ، فسأقبل أنا عليها هـذا العام ». إنها صلة متبادلة ، لأنها صلة صداقة ومحبة بين رابعة و بين الحضرة الإلٰهية التى ترمز إليها الكعبة . ومن شأن هذه الصلة أن يكون ثمت تزاور دون ما تكلف . لهذا قالت تلك العبارة وفيها من البساطة وعدم الكلفة ما يكشف عن الصلة الجديدة التى عقدتها مع الله .

ومن الواضح طبعاً فى هذا كله أن انتقال الكعبة هنا وانتقالها هى يجب ألا يفهما بمعنى حسى ، بل بمعنى مجرد هو سعى رابعة إلى بلوغ الحضرة الإلٰهية للفناء فيها والامتزاج بها ، وسعى الحضرة نفسها لمبادلتها هـــذا السعى وذلك بتلطفها ورضاها وقبولها فى داخل الحضرة .

لهذا نحسب أن معنى الحج قد رقّ ولَطُف وتروحن فى نفس رابعة إلى حدّ أنها لم تعد تشعر بالحاجة إلى أداء فريضة الحج بالمعنى المادى ، فانقطعت عنه فى سنواتها الأخيرة بعد أن امتلأت بهذا المعنى الجديد للحج ، وهـذا هو ما يفسر قولها لما رأت الكعبة — بمعناها الحسّي — قادمة نحوها: « لاأريد الكعبة، بل رب

الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ! » ولم تشأ أن تنظر إليها[١] فمعنى هذا أنها لم تعد ترغب فى النظر إلى الكعبة ، الكعبة المحسوسة ، البيت الذى ببَكَّةَ ،أى أنها ، بصريح العبارة ، لن تحج بعد ذلك اليوم ، وستأوى إلى بيتها وتنقطع فيه ، فمنه هو الآخر أيضاً تستطيع أن ترى وجه الله وأن تنعم بالحضرة ، فالاقتصار على البيت العتيق الذى بمكة وثنية ، شأنها شأن وثنية أولئك الذين اقتصروا على أصنامهم فرأوا فيها وحدها آلهة . لقد قال تعالى : «فأينما تولوا فثم وجه الله» . إذاً فما معنى الاقتصار على البيت الحرام !

وتلك أعلى مراتب التنزيه ، بلغتها رابعة فودعت التنقل وأوت إلى بيتها هى الحرام .

— ٦ —

أوت رابعة إذن إلى بيتها واستغرقت فى انقطاعها لله . فماذا كان من أمر حياتها الدنيوية ؟

هنا يجب أن نبدد أولاً خلطاً وقع فيه المؤرخون القدماء وجاراهم عليه المحدثون الذين كتبوا عن رابعة ، وبخاصة مارجرت اسمث فى كتابها عن « رابعة وزميلاتها المتصوفات فى الإسلام[٢] » ، مع أن كثيراً من أولئك الأقدمين أنفسهم قد نبّهوا عليه ، وبخاصة عبد الرؤوف المناوى فى كتابه الجيد « طبقات الأولياء[٣] » ، كما سنرى عما قليل ، ومن قبله ابن الجوزى فى « صفة الصفوة[٤] » ؛ وقد رأينا من قبل آثاراً لهذا الخلط نبهنا عليها .

---

(١) العطار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) Margaret Smith; Rabi'a the Mystic and her Fellow-saints in Islam. Cambridge, 1928

(٣) مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ ورقة ١٠٦ ا — ١٠٦ ب .

(٤) ج ٤ ص ٢٠٢ ا برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية بدمشق .

ذلك هو الخلط بين رابعة الشامية و بين رابعة البصرية صاحبتنا . أما رابعة الشامية فهى التى قال عنها المناوى إنها «رابعة بنت اسماعيل العدوية :ورابعة هذه بمثناة تحتية ، وهى شامية ، والتى قبلها بموحدة [١٠٦ب] تحتية ، وهى بصرية فافترقا» ، والغريب فى هذا أن المناوى يقول عنها إنها تسمى «العدوية» أيضاً وهو مالا نجده فى المصادر الأخرى . فهل اختلط عليه الأمر هاهنا فى هذه الدقيقة ؟ لانستطيع الجواب حتى نظفر بمصدر آخر مستقل ، لأن حجة الصمت لا تصلح كثيراً فى البحث التاريخى . والغريب أن ابن الجوزى فى « صفة الصفوة » لم يشر إلى نسبها هذا . لذا لو كان لنا أن نرجح لقلنا إننا نجنح إلى أن يكون هنا عدم تنبه من جانب المناوى أو غفلة من جانب الناسخ . والمناوى على كل حال إنما يردد هنا ما قاله ابن الجوزى من قبل فى « صفة الصفوة » فى تفرقته بين كلتيهما . قال ابن الجوزى : « رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارِى ، كذا نسبها أبو بكر بن أبى الدنيا . وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلَمى أن رابعة العدوية تشارك هذه فى اسمها واسم أبيها . وعموم مايأتى فى الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ، والعدوية بصرية ، وهذه شامية » .وليس من شك فى أن هذا يدلنا على أن الخلط قد حدث منذ عهد مبكر جداً مادام السُّلَمى (ولد سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م وتوفى سنة ٤١٢ هـ — سنة ١٠٢١ م) قد نبه إليه . وقد يكون فى قول ابن الجوزى هنا « والعدوية بصرية ، وهـــذه شامية » ماقد يزيد فى تأييد مارجحناه من غفلة المناوى (أو الناسخ) بذكره رابعة الشامية على أنها «عدوية» أيضاً ، مادام ابن الجوزى فى معرض التفرقة يكتفى بقوله « العدوية » ،فلو كانت رابعة الشامية عدوية هى الأخرى لما لجأ إلى هذا التمييز فاقتصر على هذه النسبة . خصوصاً أنه من المحتمل جداً أن يكون ابن الجوزى هو مصدر المناوى فى هـــذه التفرقة ، كما هو مصدره فى غالب ما يورد من أخبار فى هذا الكتاب .

ثم يؤكد ابن الجوزى هذه التفرقة بعد ذلك مباشرة عن راوٍ آخر فيقول : « وقد أخبرنا أبو ناصر قال : أنبأنا أبو الغنائم بن النرسى قال : رابعة بالباء بنقطة فى تحتها بصرية ، ورابعة باثنتين من تحتها شامية[١] » .

هناك إذن رابعتان ، إحداهما رابعة العدوية البصرية ، والأخرى رابعة أو رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبى الحوارى . وهـذا الأخير هو أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارِى . « واسم أبى الحوارى ميمون. من أهل دمشق. صحب أبا سليمان الدارانى وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الفزارى و بشر بن السرى وأبا عبد الله النبَّاجى وغيرهم من المشايخ — رضى الله عنهم أجمع — وله أخ يقال له المولى بن أبى الحوارى يجرى مجراه فى الزهد والورع ؛ وابنه عبدالله من الزهاد ؛ وأبوه أبى الحوارى ... كان من العارفين والورعين . فبيتهم بيت الورع والزهد . مات سنة ثلاثين ومائتين[٢] » . أما زوجه ، رابعة الشامية ، فإنها ماتت سـنة خمس وثلاثين ومائتين ، « ودفنت برأس زيتا ببيت المقدس » ، كما يقول المناوى[٣] . إلا أنه ورد فى مخطوطة المناوى هذه أنها توفيت سنة « خمس وثلاثين ومائة » . وليس من شك فى أن هاهنا تحريفاً ، والأصل « ومائتين » ، لأنها وهى زوج أحمد بن أبى الحوارى المتوفى سنة ثلاثين ومائتين لا يمكن أن تكون قد توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة. فهل يكون المناوى قد وقع فى هذا الخطأ الفاحش وهو الذى حرص على التنبيه على هذه التفرقة وقال بصراحة إن رابعة بنت اسماعيل الشامية هذه هى زوجة أحمد بن أبى الحوارِى — من أجل أن ينقذ التاريخ

---

(١) ابن الجوزى : « صفة الصفوة » ، مخطوط الظاهرية بدمشق برقم ٦٧ تاريخ ج٤ ص ٢٠٢ ا .

(٢) أبو عبد الله الحسين بن نصر الجهنى : « مناقب الأبرار وشمار الأخيار » ، مخطوط فى مجموع بالظاهرية برقم ٤١ تصوف ، ورقة ١٧٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ورقة ١٠٦ ب .

الآخر — وهو سنة ١٣٥ هـ — الذى ينسب فى بعض المصادر — كما سنرى — أن رابعة توفيت فيه ؟ لو كان هذا هو ماقصد ، فيالسوء ماقصد ! فقد أفسد كل مافعله فى مستهل حديثه حينما ميز بين كلتا الرابعتين . وليس ببعيد أن يكون قد وقع فعلا فيه — ولم يكن عن تحريف النساخ — إذا ما تذكرنا أنه اكتفى فى بيانه لوفاة رابعة العدوية البصرية بذكر سنة ثمانين ومائة ؛ وإذا ماتذكرنا كذلك أنه كان متردداً فى إيراد أخباره ، فتردد كذلك فى الحديث عن القبر القائم بقرب بيت المقدس، فقال: « ودفنت برأس زيتابيت المقدس . وقيل [١٠٧ ا] المدفونة هناك إنما هى الأولى » أى البصرية. ومع هذا فقد افترضنا أن تكون هنا سقطة قلم والأصل هو : « سنة خمس وثلاثين ومائتين » أى بعد وفاة زوجها أحمد بخمس سنين . فهى لاشك توفيت فى ذلك العهد أو قريباً منه زيادة أو نقصاً بقليل .

ونحن نفترض أن ابن الجوزى كان المصدر لمن جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن رابعة . وإنا لنراه فى كل ما أورده من أخبار عن رابعة الشامية يذكر سلسلة من الرواة تنتهى كلها دائماً باسم أحمد بن أبى الحوارى ، فهو إذن الراوى المباشر . وهـذا يعطينا مفتاح المشكلة فى كل الأخبار التى وردت باسم رابعة — بدون تمييز — مشفوعة بأسماء الرواة . فكل سند يرد فيه ذكر أحمد بن أبى الحوارى يجب أن نقـدر أنه يتحدث عن رابعة الشامية ، لاعن رابعة العدوية البصرية صاحبتنا فى هذا البحث .

لهذا يجب علينا اتخاذ هاتين القاعدتين :

(الأولى) أن نستبعد كل رواية ورد سند رواتها ومن بينهم أحمد بن أبى الحوارى ، لأن هذا ما كان له أن يحدِّث إلا عن رابعة الشامية، زوجه ؛ وهو شامى ولا نعلم أنه أتى البصرة ؛ وفضلا عن هذا فإن موته سنة ٢٣٠ يجعل من المستبعد جداً أن يكون قد عرف رابعة البصرية حتى لو كان قد ارتحل إلى البصرة

لأنه لابد أن يكون ذلك فى سن مبكرة كثيراً ، اللهم إلا إذا افترضنا أنه عُمِّر طويلا جداً و بدأ التصوف مبكراً . كل هـذا على افتراض أن رابعة البصرية توفيت حتى فى أبعد سنة تفترض لها وهى سنة خمس وثمانين ومائة . و إذن فكل ما يروى عن ابن أبى الحوارى يختص برابعة أو رابعة الشامية وحدها ، زوجه .

(الثانية) أن كل الأخبار التى ثبت سند رواتها وفيهم أحمد بن أبى الحوارى يجب أن نسقطها من حساب رابعة البصرية إذا نسبت إليها غُفْلاً من كل سند . ذلك أن بعضاً من الرواة والمؤرخين لايأتون بالسند ، أو لايأتون به كاملا بحيث يصل إلى الراوى الأخير ، ويذكرون عن رابعة البصرية أخباراً وردت عن مؤرخين آخرين مشفوعة بسند فيه أحمد بن أبى الحوارى أى — تبعاً للقاعدة الأولى — مما يجب أن ينسب إلى رابعة الشامية . فهؤلاء إذن تسقط رواياتهم لمجرد ورودها منسوبة فى روايتها إلى أحمد ابن أبى الحوارى فى المصادر الأخرى المعنية بسلسلة الرواة .

فبتطبيق هاتين القاعدتين نستطيع أن نميز بين ما يصح لرابعة البصرية صاحبتنا ، وما يصح لرابعة الشامية زوج أحمد بن أبى الحوارى . على أن التمييز — مع ذلك — لن يكون هاهنا كاملا كما نود ، وذلك لسببين :

(الأول) أن القليلين من المؤرخين هم الذين حَرَصوا على الإتيان بسلسلة الرواة كاملة ، لأنهم مُحَدِّثون فيحرصون على ذكر السند تاما ؛ وخيرهم فى هـذا من غير شك هو ابن الجوزى فى « صفة الصفوة » .

و (الثانى) أن ثمت أخباراً عديدة لم ترد عند الأولين — أى المعنيين بذكر السند التام — ، فلا ندرى ، وهى مُغْفَلَة من كل سند ، أهى حقاً لرابعة البصرية ، أو لعلها لرابعة الشامية ؟ إن منهم من يقدمونها على أنها لرابعة البصرية — لكن من يدرينا لعلها فى الأصل لرابعة الشامية وخلطوا فيها كما فعلوا فى الروايات الأخرى

التي استطعنا تمييزها وفقاً للقاعدتين السابقتين . وإن منهم كذلك لمن يكتفون بنسبتها إلى مجرد « رابعة » ؛ فليت شعرى أية رابعة يعنون ! أما وصاحبتنا رابعة البصرية هى الأشهر التي ينصرف إليها خصوصاً ذهن القارىء ، فقد افترضنا — لأننا لانملك أن نفعل غير ذلك — أن المقصود هو رابعة العدوية البصرية صاحبتنا ، وإلا كان على الراوى أن ينبه إلى ذلك . فإغفاله التنبيه على غيرها يُفَسَّر بقصده إياها وحدها .

ذلك التقدير المنهجى الذى قمنا به على أكبر درجة من الخطورة لأنه سيوضح شخصية رابعة العدوية البصرية أتم إيضاح مستطاع بوسائلنا . فكأين من آراء تنسب إليها كان مصدر التناقض الفاحش فيها هو ذلك الخلط بين كلتا الرابعتين! وكم من مسألة استعجمت مذاهبها وعُمِّيَتْ مسالكها فى البحث فى رابعة : حياتها وأفكارها، لا لشىء إلا لوقوع هذا الالتباس بين رابعة البصرية ورابعة الشامية ! أجل إن كثيراً من الأخبار والأقوال ستبتر بحد هذا المنهج ، ونحن أحوج ما نكون إلى تلمُّسِ أخبار رابعة لندرتها ، لكن ما قيمة هذه الأخبار مادامت لاتنتسب إليها ، بل ولا إلى أسطورتها هى الخاصة ؟ !

وأول ضحية لهذا المنهج كلُّ ما ورد من أخبار تفترض أنها تزوجت . وهى :

١ — ما رواه صاحب « الروض الفائق فى المواعظ والرقائق »[1] من أنه :

« لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصرى فى الدخول عليها هو وأصحابه ؛ فأذنت لهم وأرخت ستراً ، وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بعلك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عُدّتك ، فاختارى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم . . . » إلى آخر ما ذكره هنا من أنها طلبت من الحسن

---

(١) الشيخ الحريفيش : «الروض الفائق فى المواعظ والرقائق» ، ص ١١٧ — ص ١١٨ . طبع المطبعة اليمنية بالقاهرة ، ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م .

البصرى الذى كان أعلم هؤلاء أن يجيبها عن أربع مسائل ، فإن فعل فهى له أهل .

والخبر كله غير صحيح أولاً لأنه يتحدث عن الحسن البصرى ، والحسن البصرى ولد سنة ٢١ هـ (= ٦٤٢ م) وتوفى سنة ١١٠ هـ (= ٧٢٨ م) ، بينما التاريخ الذى سننتهى إليه فى بيان وفاتها هو سنة ١٨٠هـ أو سنة ١٨٥هـ ، فلا يمكن وقوع هـذا الحادث بينهما . وإنما هو من الأخبار العـديدة التى شاء أصحابها أن يربطوها فيها بالحسن البصرى . وسنرى تفصيل هذا التفضيل لوفاتها المتأخرة حين الحديث عن تاريخ وفاتها .

وغير صحيح ثانياً لأنها لم تتزوج كما سيتأيد فيما يلى :

٢ — ماذكره اليافعى[1] فى « روض الرياحين فى مناقب الصالحين » فى قوله : « وحكى عن أحمد بن (أبى) الحوارى عفا الله عنه أنه قال : كانت لرابعة العدوية أحوال (فى المطبوع : أهوالا) شتى : فكانت مرة يغلب عليها الحبُّ . . . » إلى آخر الأبيـات التى أوردها من أقوالها فى حال الحب ثم فى حال الأنس ، ثم فى حال الخوف . والغريب أنه يستمر فى الخبر فيقول بعد هذه الأبيات مباشرة : « قال زوجها : فقلتُ لها ليلة من الليالى . . . » فكيف يكون الحديث عن رابعة البصرية إذا كان زوجها أحمد بن أبى الحوارى ؟ ! كذلك الحال فى كل ما ورد اليافعى بعـد ذلك « عن زوجها » ، وكذلك ما قاله من أنه « كانت تأتيها الجن بكل ماتطلب » ، فهذا أيضاً من شأن رابعة بنت إسماعيل الشامية ، كما يتأيد ذلك مما رواه المناوى حين قال عن رابعـة ابنت إسماعيل الشامية : « وكانت ترى الجن عياناً » ، فهى إذن الشامية التى كانت على صلة بالجن ، لا رابعة البصرية .

على أن ابن الجوزى فى « صـفة الصفوة »[2] قد ذكر هذه الأخبار تحت

(١) اليافعى : « مختصر من كتاب روض الرياحين فى مناقب الصالحين » ، ص ١١١ — ص ١١٢ ، طبع المطبعة الكستلية ، القاهرة سنة ١٢٧٩ هـ = سنة ١٨٦٢ م .

(٢) ورقة ٢٠٢ — ٢٠٣ .

اسم رابعـة الشامية ، ورواها نقلا عن أحمد بن أبى الحوارى . فهـذا يقطع أيضاً بأن اليافعى هنـا قد أخطأ خطأ ظاهراً ، اللهم إلا إذا فهمنا من قوله : « رابعـة العدوية » أن المقصود هو رابعة الشامية على أساس أنها عدوية أيضاً .

٣ — ما رواه جامى فى « نفحات الأنس »[1] من أنهـا كانت إذا طبخت قدراً قالت لزوجها : « كُلْه يا سيدى فما نضج إلا بالتسبيح » . وهو خبر ورد عند اليافعى فى الموضع السابق ؛ ورواه ابن الجوزى فى « صفة الصفوة » على أنه خاص برابعة الشامية .

٤ — ما أورده العطار من حكاية الحسن معها فى سؤالها إياه عن عدة مسائل — وهو ما ذكر من قبل تحت رقم ١ — والعطار يذكر الخبر دون ذكر الحسن ؛ وبدلا من أربعة مسائل يذكر ثلاثة . ونحن نرى أنه مادام العطار لم يفعل إلا أنه اختصر فى الخبر الوارد فى رقم ١ ، فهو إذن لم يأت إلا بالخبر عينه؛ فحكم هذا الخبر حكم رقم ١ ، أى أنه غير صحيح .

من هـذا يتبين إذاً أن الأخبار التى تفترض زواج رابعـة البصرية إنما هى فى الواقع أخبار خاصة برابعة الشامية ، كما يؤيد ذلك ابن الجوزى بما لا حاجة بعده إلى فضل بيان . وعلى هـــذا فليس لدينا مصدر واحد يصرّح بأن رابعـة البصرية تزوجت .

ذلك هو الجانب السلبى من حِجاجنا للبرهنة على أن رابعة البصرية لم تتزوج . والجانب الإيجابى هو أخبار طلب الزواج منها :

(١) أما ما يتصل منها بالحسن البصرى فمرفوض جملة لما ذكرناه فى رقم ١ .

(ب) أما الأخبـار التى لا يقف حائل دون صحتها فهى خِطْبة عبـد الواحد ابن زيد لها ثم خِطبة أمير البَصرة محمد بن سليمان الهاشمى كذلك .

(١) جامى : « نفحات الأنس » ، ص ٧١٩ ، نشرة ليس ونساو ، كلكتا سنة ١٨٥٩ م .

والخِطبة الأولى روى نبأها كل من عين القضاة الهمذانى فى « شكواه »(١) ثم الزبيدى فى « إتحاف السادة المتقين »(٢) . قال عين القضاة فى الحديث عن رابعة : « وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علو شأنه ، فهجرته أياماً حتى شَفَع له إليها إخوانُه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! » .

ورواه الزبيدى بصورة أكمل فقال : « وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبته أياماً حتى مثلت أن يدخل عليها ، فقالت له : يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أىَّ شىء رأيت فىَّ من آلة الشهوة ؟! »

كذلك روى المرتضى الزبيدى الخِطبة الثانية فقال : « وخطبها محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة على مائة ألف وقال : لى غَلّة عشرة آلاف فى كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لى عبدٌ وأن كل مالك لى ؛ وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين » .

وروى ذلك الخبر أيضاً عبد الرؤوف المناوى(٣) فقال : « كتب محمد بن سليمان الهاشمى — وكانت غَلّة مُلْكه كل يوم ثمانيــــة آلاف درهم — إلى كبراء أهلِ البصرة فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة . فكتبت(٤) إليه : « أما بعد ! فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن؛ والرغبــة فيها تورث الهمَّ والحَزَن ؛ فهيىء مزادك وقَدِّم لمعادك ، وكن وصىَّ نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ؛ وصُم الدهر ، واجعل فِطْرَكَ الموت . وأما أنا فلو خَوَّلنى الله [١٠٤ ب]

---

(١) عين القضاة الهمذانى : « شكوى » مخطوط برلين ، ورقة ٧٣ ه (أورده ماسينيون فى : « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بالتصوف الإسلامى » ، ص٧ تحت رقم ٦ ، باريس سنة ١٩٢٩)

(٢) المرتضى الزبيدى : « إتحاف السادة المتقين » ، جـ٩ ، ص٥٥٦ .

(٣) « طبقات الأولياء » ورقة ١٠٤ ، ب ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ .

(٤) فى المخطوط : فكتب إليها — والسياق يقتضى ما أثبتناه لأن المخاطب مذكر فى الأفعال الواردة فى هذه الرسالة .

أمثال ما حزت وأضعافه [ف] لم يسرّنى أن أشتغل عن الله طرفة عين والسلام » .

فهاتان الخطبتان ورفض رابعة لكلتيهما تدلان تمام الدلالة على فكرتها عن الزواج بالنسبة إلى نفسها وهى أنها لا تراه يصلح لها . والذين وضعوا قصة الحسن المذكورة فى رقم (١) إنما قصدوا إلى إبراز هذا المعنى ، خصوصاً حينما ختموها بأن جعلوا رابعة تقول لما أن أعيت الحسنَ الإجابةُ عن أسئلتها الأربعة :
« إذا كان الأمر كذلك وأنا فى قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أنشدت :

راحتى ، يا إخوتى ، فى خلوتى وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجِدْ لى عن هواه عِوَضاً وهواه فى البرايا محنتى
حيثما كنتُ أشاهدُ حُسْنَه فهو محرابى ، إليه قِبْلتى
إن أَمُتْ وَجْدًا وما ثمَّ رضا واعَنائى فى الورى ! واشقوتى !
يا طبيبَ القلب يا كلَّ المُنى ! جُدْ بوصلٍ منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحياتى دائماً نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هجرتُ الخلْقَ جمعاً أرتجى منك وَصْلاً ، فَهُوَ أقصى مُنْيَتى »(١)

فهذه أسطورة ، ولعل الأبيات نفسها منحولة عليها ، لكنها مع ذلك تعبّر عن الصورة التى تصورها واضعوها عن رابعة ؛ وهى تؤذن بأن رابعة كانت ترى استحالة الزواج بالنسبة إليها ، لأنها فى شغل بالمهمّ من أمور الآخرة والحياة الروحية ومسائلها ، فأنّى لها أن تفرغ للزوج والحياة الدنيا !

لهذا كله نرى أن حكاية زواج رابعة إن هى إلا أسطورة نشأت عن الخلط

---

(١) الشيخ الحريفيش : « الروض الفائق فى المواعظ والرقائق » ، ص١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م .

بين رابعة الشامية زوج أحمد بن أبى الحوارى و بين رابعة البصرية العدوية القيسية صاحبتنا هنا .

فإذا نظرنا الآن فى نظرية رابعة فى الزواج تأيد لنا الأمر وازداد وضوحاً . وهنا يحسن بنا أن نتحدث عن نظريات رجال عصرها وأصدقائها لنعلم فى أية بيئة نشأت نظريتها هى ، ولماذا اتخذت ذلك الطابع الذى اتخذته . و إنّا لنجد على رأس هؤلاء الحسن البصرى ، رائد حركة الزهادة فى ذلك العهد كله ، الذى لا يرى الزواج بالنسبة إلى الزاهد ، بله إلى العبد الصالح . قال : « إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » .[1] كذلك نرى أبا نعيم يقول فى « الحلية »[2] : « قال (رياح) سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصّديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، و يأوى إلى مزابل الكلاب » . وفى هذا ما يدل على نزعة إلى تقرير العزوبة بمثابة فرض على من يريد أن ينقطع لله و يبلغ منزلة الصّديقين . وذلك لأن فى الزواج صرفاً له عن الانقطاع لله وعدم الاشتغال بشىء غير ذكر الله ؛ كما أن ما يلاقيه من رفاهية ودعة يمنع من « كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ؛ و يتسلط على الباطن خوفُ الفقر ومحبةُ الادخار — وكل هذا بعيد عن المتجرد » كما قال السهروردى[3] فى « عوارف المعارف » وفى هذا يقول إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٠ هـ أو سنة ١٦٦ هـ) : « من تعود أفخاذ النساء لا يفلح »[3] .

فإذا صحّت هذه الأخبار وغيرها مما ينسب خصوصاً إلى الحسن البصرى —

---

(١) الشعرانى : « الطبقات » ، حـ ١ ، ص ٢٥ .

(٢) وقد أورده الشعرانى (« الطبقات » حـ ١ ص ٤٠) على أنه قول رياح بن عمرو القيسى ، ولكن هذا غير صحيح لأنه ينقل عن صاحب « الحلية » أولا ، وثانيا لأن هذا القول يفترض إمكان الزواج بالنسبة إلى الصوفى ، وهو ما لا يقول به رياح .

(٣) ص ١١٩ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٣٩ .

وليس مانع يمنع من أن تكون صحيحة لأن أصحابهـا لم يتزوجوا ، فإن كان عدم تأهلهم عن مبـدأ ، فلا شك فى أن هذه الأخبـار تعبر عن آرائهم إن لم يكونوا قد نطقوا بها فعلا — نقول إذا صحّت هذه الأخبار فإن هذا يدل على أن الدعوة إلى التجرد ، أى عدم الزواج ، قد وجدت فى عصر مبكّر ، أى فى أواخر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى . وليس من شك كذلك فى أن هذا الرأى الذى دَعَوْا إليه إنمـا اعتقدوه لمـا رأوه من عدم توافق فى الجمع بين التـأهل و بين ممارســـة حياة الزهادة ، ولم يكن ذلك نتيجة تأثّر بنظام رهبنـة . أجل إن الأحاديث العديدة التى اخترعها الصوفية وفيها تمجيد للعزو بة إنمـا هى وليدة القرون المتأخرة ابتداء من القرن الثالث للهجرة ، لأنها لا تتفق مطلقاً مع ما كانت عليه حياة الرسول وهو القدوة الكبرى ، فما كان ينتظر منه إذن أن يدعو إلى حياة التجرد والعزو بة على أنها الحياة المثلى ، بينما هو — وهو الرسول — لا يسلكها ، بل ولا يقترب منها . ومن هنا كان على الصوفية الواضعين لتلك الأحاديث أن يبرروا ذلك بتفرقتهم بين عهدين : عهد إلى سنة مائتين من الهجرة ، وعهدٍ إلى ما بعد المـائتين . و إنا لنعلم تلك الأحاديث الكثيرة التى تذكر فيهـا سنوات وتواريخ للهجرة ، وكأن واضعيها لم يكونوا من الفطنة بحيث لم يتنبهوا إلى أن التأريخ بالهجرة إنمـا تم فى عهد عمر ، فكيف يؤرخ النبىّ السنين ابتداء من الهجرة ! ! وعلى كل حال فقـد ذكروا تلك الأحاديث ذوات التواريخ فيما يتصل بمسـألة العزو بة . قال أبو طالب المكى فى « قوت القلوب »[1] : « وفى خبرٍ : إذا كان بعد المـائتين أبيحت العزو بة لأمتى ؛ وَلَأَن يربّى أحَدُكم جَرْوَ كلبٍ خيرٌ من أنـ يربي ولداً » . وقال السهروردى فى « عوارف

---

(١) أبو طالب المكى : « قوت القلوب » ، طبع القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، ج ٤ ص ١٥٠ .

المعارف »[1] : «قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ . قيل : يارسول الله ! وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذى لاأهل له ولا ولد»[2] . وواضحٌ ما فى هذه التفرقة بين عهدين فى التشريع بعد وفاة الرسول من مجافاة لكل ألوان الاحتمال والقبول .

إنما رأى الصوفية أنفسهم بإزاء وضع جديد ابتدعوه ودعوا إليه فكان عليهم أن يبرروه بواسطة الأحاديث الموضوعة ، شأن كل مذهب أو رأى ابتدع فى الإسلام بعد وفاة الرسول .

ولا نرانا نتجاوز المعقول كثيراً إذا افترضنا أن الحسن البصرى كان أول من دعا إلى العزوبة صراحة ، ووضعها شرطاً من شروط التقوى والزهادة الحقة . ومنذ عهده وطوال القرن الثانى للهجرة تضافرت الآراء عند بقية الصوفية حول هذه الفكرة ، لأنهم وجدوا فيها ما يتفق مع مقتضيات الأسلوب الذى اتخذوه لأنفسهم فى الحياة . لقد كانوا منصرفين عن الدنيا ، فكيف يمدون بجذورهم فيها عن طريق الأهل والولد ؟! وهنا لم يعدَموا فى القرآن آيات يمكن أن تؤول على أن فيها تأييداً لاتجاههم هذا . ورد فى القرآن : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم »[3] ؛ وورد كذلك : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابا وخيرٌ أَمَلاً » (سورة الكهف ، آية ٤٦) ؛ ففى الآية الأولى تحذير من الأهل والولد ، إن لم يدع إلى تركهم فهو يحذر منهم . وهذا التحذير يمكن أن يفسره من يأخذ بالأحوط على أنه نوع من النهى ، وفى الآية الثانية تفضيل بين حالتى التأهل والتجرُّد ، مع القول بأن التجرُّد

---

(١) أبو حفص عمر السهروردى : «عوارف المعارف» ص ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٣٩ م .

(٢) وفى «قوت القلوب» ، الموضع السابق ورد هكذا : « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد »

(٣) سورة التغابن : ١٤ .

أو ما فى معناه وإن لم ينطق به بصراحة هنا « خير عند ربك ثوابا وخير أملا » فضلا عما فى كلمة « زينة » الحياة الدنيا هنا من معنى لا يخلو من التهكم والقدح ، وإن فيها للباقة فى التعبير كانت مميزة واضحة لما فى جوهر الإسلام من ثُنائية ومحاولة للجمع بين الطرفين المتعارضين فى كل المذاهب والمسالك .

فى القرآن إذاً ما يستطيع الصوفية الاستناد إليه فى دعواهم إلى العزوبة حتى لو أعوزتهم سُنَّة الرسول قولا وفعلا وتقريراً . على أن المشاهد فى هذه الحالة — وفى كل الأحوال المشابهة لها — أن المسلم لا يصدر هنا فى رأيه أو فعله عن القرآن مباشرة أو عن السُنّة ؛ إنما يصدر أولا عن مقتضيات حياته الباطنة أو الخارجة ، ثم يغدو من بعد ذلك إلى الكتاب وأحاديث النبي عساه أن يجد فيها السند الدينى لما يذهب إليه . فأولئك الصوفية — ابتداءً من الحسن البصرى — ممن رأوا عدم إمكان الجمع بين التأهل وسلوك الطريق قد ابتدأوا أولا بأن اقتنعوا بعدم إمكان الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين تعارضاً عبر عنه بعض الفقراء أجمل تعبير لما أن قيل له : تزوج ! فقال : «أنا إلى أن أُطَلِّق نفسى أحوج منى إلى التزوج[(١)]». ثم راحوا من بعد ذلك يجدون لهذا أصلا من الكتاب والسنة عنَّهم أن يجدوه . ووجوده فى الكتاب فعلا فى أمثال تلك الآيات التى أوردناها منذ قليل . لكن كان عليهم بعد ذلك أن يوفقوا بين مقتضى الآيات والأحاديث والسنن المضادَّة لهذا الاتجاه ، وبين مقتضى حياتهم الداعية إلى التصوف الزاهد فى الزواج . فلجأوا أولا إلى أحاديث إباحة العزوبة بعد المائتين ، لكن يلوح أن هذا لابد أن يكون متأخراً عن المائتين ، ومِنْ وضع من أتوا بعد ذلك ، خصوصاً فى القرنين الرابع والخامس . فبقى إذاً أن نجد تبريراً لمسلك من كانوا قبل سنة مائتين :

(١) أبو حفص السهروردى : «عوارف المعارف» ، ص١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨هـ — سنة ١٩٣٩ م .

أنعدُّهم خارجين على الكتاب والسنة ؟ لعل الذين وضعوا تلك الأحاديث الخاصة بالعهدين (ما قبل المائتين ، وما بعدها) لم يحرصوا كثيراً على مصير من كانوا قبل المائتين ، وكانوا من الأثرة بحيث قصروا الإباحة على أنفسهم ! لهذا كان على الذين يريدون تبرير أحوال التجرد وعدم الزواج عند من كانوا قبل المائتين أن يلجأوا إلى ذريعة أخرى هى التفرقة بين مرتبتين إحداهما أعلى من الأخرى : مرتبة المتجرد ، ومرتبة المتأهل . فقالوا إن التأهُّل رخصة وسُنَّة ؛ أما التجرد — بالنسبة إلى الصِّدِّيق الورع — فهو عزيمة وفرض . وفى هذا[1] يقول بشر بن الحارث الحافى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ = سنة ٨٤١ م) لما قيل له : « إن الناس يتكلمون فيك . فقال : مايقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسُّنة — يعنى النكاح . فقال : قولوا لهم : أنا مشغول بالفرض عن السُّنَّة » . كذلك ماحكاه صاحب « عوارف المعارف » أيضاً فقال : « سمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلى قال له بعض الصالحين : لِمَ تزوجتَ ؟ فقال : ماتزوجتُ حتى قال لى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم : تزوج ! فقال له : ذلك [١٢٠] الرجلُ : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرُّخَص ، وطريق القوم : التزِمْ بالعزيمة ! — فلا أعلم — كذا يقول أبو حفص السهروردى — ماقال الشيخ فى جوابه » ، ويأخذ السهروردى فى الجواب عن الشيخ عبد القادر الجيلانى و يبرر فعلته . والمهم فى هذا عندنا أن نبين الوسيلة التى اتخذها الصوفية فى بيان أسباب اتخاذهم التجرد بدل التأهل ، ثم مفاضلتهم بين الحالين بما يجعل التجرد فرضاً على الصوفى .

ونحسب هذا القدر كافياً لبيان الجوّ الذى عاشت فيه رابعة من حيث مسألة التأهل أو الزواج . فهو بالجملة جو يدعو عند الصوفية إلى عدم الزواج ، لأن الزواج يتنافى مع الوفاء بالحياة الروحية العالية وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وانصراف عن الدنيا و إماتة للشهوات وارتفاع بالمضمون الروحى الباطن بارتفاع الجانب المادى الظاهر . بيد أنه يلاحظ مع ذلك أن هذا كله لم يكن قد استقام على قاعدة ثابتة .

لكن رابعة جاءت فضربت بسهم وافرٍ فى سبيل تقنين عدم الزواج عند أصحاب الطريق . ونظن أنه كان لها أثرها الحاسم فى هذا التوجيه ، بعد أن كان الأمر فى الغالب أمر مزاج شخصى عند الحسن ورياح و إبراهيم بن أدهم والدارانى ومن إليهم ؛ إذ صار بمثابة قاعدة كان من الصعب على الصوفية من بعد ذلك الخروج عنها ، وحتى انقطع الشيخ عبد القادر الجيلانى فى الجواب فلم يُحِرْ قولاً لما أن أفحمه السائل إياه عن سبب تزوُّجه . ذلك لأن رابعة امرأة . والغاية العظمى عند المرأة فى الحياة هى الزواج ، ولذا كان له عند المرأة أهمية كبرى أشد بمراحل عدة من أهميته عند الرجل. فإذا وجدناها ، وهى المرأة ، تحرص على عدم الزواج ، فما أبلغها من قدوة عند أهل الطريق ! ومن هنا كانت مسئلة خِطبتها مرتين : لعبد الواحد بن زيد ، الصوفى الكبير ، ولمحمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة ، غنيةً بالدلالة على قوة نفسها فى هذا الباب . فإجابتها عن خِطبة الأول بقولها بعد أن حجبته أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر الأكبر فى نظرها ونظر كل صوفى حقيقى وهو طلبها للزواج منه: «ياشهوانى! اطلب شهوانية مثلك ! أىَّ شىء رأيتَ فِىَّ من آلة الشهوة ؟ ! »(١) — هذه الإجابة هى أبلغ ما يمكن أن يقال فى هذا الباب . ففيها تقريع مُرّ لهذا الصوفى الذى يريد الإقبال على الدنيا ، وفيها لوم قارس له لأنه لم يفهمها ولم يفهم رسالتها وهى أنها انقطعت لله ، حبيبها الأوحد ، فلا تريد أن تشغل بغيره ؛ وفى هذه الإجابة كذلك وصف للحال التى صارت إليها وهى أنها صارت من القداسة والطهارة والروحانية بحيث لا يجوز

(١) راجع قبل ص ٥١ ؛ وقد أورده أيضاً «لسان العرب» تحت مادة : شها.

لأحدٍ أن يخطر بباله أن فيها أثارةً بعدُ للدنيا والشهوة . وهى معانٍ قد أكدتها مرة أخرى فى جوابها عن اختيار كبراء أهل البصرة لها زوجةً لمحمد بن سليمان ، أمير البصرة (كان والياً على البصرة سنة ١٤٥هـ ؛ وتوفى سنة ١٧٢هـ) ، كما ذكرنا ذلك الجواب من قبل[١] ، وفيه تنصحه بأن ينصرف عن الدنيا و يتهيأ لأمور الآخرة و يصوم الدهر حتى يكون الموتُ فِطْرَه ؛ وهى ليست ممن يطلب المال والجاه ، وكل مايملك منهما لايمكن أن يغريها على الاشتغال عن الله طَرْفة عين .

— ٧ —

إنما نذرت رابعة نفسها لله ؛ و إذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله ، فإذا كان لها أن تقترن بأحد أفبغير الله تستطيع الاقتران ؟ !

هنا تأتى نظريتها فى الحب فتؤيد نظريتها فى الزواج . وهذا هو الجديد حقاً فى مذهب رابعة فى التجرد والعزوبة .

ونقدم بين يدى هذه النظرية بمقدمات فى المصطلح الفنى وفى تطور معنى الحب عند الصوفية ، فنقول إنه يلوح أن كلمة « محبة » بدت غريبة لما استعملت لأول مرة . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ ماسينيون : « كان عبد الواحد بن زيد يرى أن كلمة « عشق » هى الوحيدة المعترف بها فى التحدث عن الله ، وكان يرفض كلمة « محبة» على أساس أنها أثر لا يليق من آثار اليهودية والمسيحية ، مؤمناً كل الإيمان بالعشق الإلهى (سورة المائدة : . ٢) . أما مالك بن دينار ومضر القارى و (ذوالنون) المصرى فيقترحون اللفظ « شوق » ، بيد أن كلمة « حب » (تحبُّب ، محبة) التى اختارها أبان بن أبى عيَّاش ويزيد الرقاشى وجعفر الصادق (فيما يزعمون) ورابعة — هى التى انتهت بالظفر والسيادة بفضل

(١) ص ٥١ .

معروف (الكرخى) والمحاسبى »[1] . وهو يشير فى موضع آخر[2] إلى أن كلمتى عشق وشوق تشيران إلى الرغبة ، أما كلمة محبة فتعبر عن الاتصال الجنسى .

فإذا كان تقرير ماسينيون هذا لمذهب عبد الواحد بن زيد صحيحاً — ولسنا ندرى من أين استقاه لأنه لا يشير إلى مصدر — فإنه سيكون مذهباً غريباً حقاً: أولا لأن كلمة « حب » (ومحبة ، وتحبب) قد وردت فى القرآن بياناً لإمكان قيام صلة بين العبد والله فى آيتين على الأقل هما « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يُحْبِبكُم الله » (آل عمران : ٣١) ، « يأيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم و يحبونه ـ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » (المائدة : ٥٤) ، فكيف يجفل عبد الواحد بن زيد إذن — وهو من رجال القرن الثانى ، أى من المتقدمين — من مثل هذا الاستعمال أو يفضل عليه استعمالا آخر وهو « العشق » لانجد له أثراً فى القرآن ، فضلا عن السنة : فالأحاديث التى ورد فيها لفظ « الحب » عديدة[3] ، بينما لا نكاد نعثر على حديث واحد ورد فيه لفظ العشق ؟ وفضلاعن هذا فإن المعنى اللغوى أدعى إلى اتخاذ كلمة محبة (أو حب) بدلا من عشق ، لأن العشق اسم لما جاوز الحد فى المحبة ، فإذا كان لايجوّز كلمة محبة (أو حب) فكيف يجوِّز ما فضل عنها وزاد ؟! لهذا نرى صاحب « جامع الأصول » يقول : « ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى ، لأن العشق مجاوزة الحد فى المحبة ، ولا يجاوز أحد فى محبة الله تعالى قَدْرَ استحقاقه ، بل لايبلغ إلى ذلك القدر ولو اجتمعت محبة الخلق كلهم » . لهذا كله نرى أن مانسب إلى عبدالواحد ابن زيد لا يمكن أن يكون صحيحاً ، ولذا نرفضه جملة .

---

(١) ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ١٧٤ باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢

(٣) ذكر الشيخ ضياء الدين الكمشخانلى خمسة منها فى كتابه « جامع الأصول » ، ص ٢٨٣ .

وهذا يفيدنا فى مسألة هامة تعنينا هنا وهى أننا نذهب إلى أن أحداً لم يتكلم فى الحب (أو المحبة) الإلهى قبل رابعة ، وأنها هى أول من أدخلت هـذا المعنى فى التصوف الإسلامى ، بالمعنى الحقيقى الـكامل للحب ، لا بمجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيراً ظاهريا .

على أن ثمت لفظاً ثالثاً يعبر عن تلك الصلة — إلى جانب « الحب » (أو المحبة) والعشق — وهو « الخُلَّة » . ويظهر أن هذا اللفظ قد استخدم على عهد رابعة ، وصار نظرية عند صديقها رياح بن عمرو القيسى . ويفسره صاحب « جامع الأصول »[1] هكذا : «أما الخلة فهى مشتقة من تخلل الشىء فى الشىء . وسمى الخليل خليلا لتخلل خليله فى قلبه ، فوجوده مُستَهلَكٌ فى وجوده . فإذا تكلم تكلم فيه ، وإذا سكت فهو نُصْبُ عينيه فى كل حال . وأنشدوا فى ذلك :

قد تخللتَ مَسْلك الروح منى ولذا سمى الخليل خليلا

أنت همى وهمتى وحديثى ورقادى إذا أردت مقيلا »

والصوفى إذا بلغ منزلة « الخلة » هذه بينه و بين الله سقطت عنه التكاليف واستباح لنفسه مالا يستبيحه الله لغيره من الناس ، لأن كل مافى الدنيا مِلْك لله ، وبالنسبة إلى الله ينتفى معنى الحرام والحلال ، فكل حِلٌّ له ، وفى حال الخلة يكون العبد الخليل بمثابة الله نفسه أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره مالا يمكن غيره أن يستحله . فإذا كان كل ما فى الدنيا ملكا لله ، فلخليله الصوفى هذا أن يستحل مايشاء من هذا الملك .

ويلوح أن هذا قد صار مذهباً منذ أن وضع أسسه رياح بن عمرو القيسى وكُليب . إذ نرى أبا الحسين الملطى فى كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء

(١) «جامع الأصول» ، ص ٢٨٦ .

والبدع »[1] يجعله مذهباً ينـــدرج تحت أحد مذاهب الزنادقة ، وهو المذهب الذى يسميه باسم مذهب « الروحانية » . والروحانية أصناف ذكر منها خمسة . ولا شك فى أنه يقصد « بالروحانية » هنا الصوفية ، لأن المذاهب التى يسردها ومن ذكر لها من أشخاص هى مذاهب صوفية . ويعنينا هنا الصنف الثانى من الروحانية ؛ قال الملطى :

« ومنهم صنفٌ من الروحانية زعموا أن حبَّ الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبُّـه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان ذلك عنـدهم ، وكانوا عنده بهذه المنزلة ، وقعت عليهم « الخُلّة » من الله ، فجعِلَ لهم السرقةُ والزّنا وشُرب الخمر والفواحش كلها على وجه « الخُلّة » التى بينهم وبين الله ؛ لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه « الخلّة » كما يَحِلُّ للخليل الأخذُ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم : رياح وكُلَيب ، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها . كذبوا ! أعداء الله ! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليـل — خليل الرحمٰن عليه السلام — يُسأل يومَ القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول : لست هناك ؛ ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبى عليه السلام أنه قاله » .

وأهمية هذا النص لا نصاب لها قيمة لأن المؤلف من القرن الرابع ؛ ولأن نسبة هذا المذهب إلى رياح بن عمرو القيسى (المتوفى سنة ١٨٠هـ = ٧٩٦م) يجعل المذهب قديماً قد عُمِّر طويلا إلى حين عهد المؤلف ، إن لم يكن فى أتباع يؤمنون به فعلى الأقل كان لا يزال مذهباً يشغل الناس . ثم يهمّنا خاصة لأنه مذهب رياح القيسى صديق رابعـة . فإذا لاحظنا من ناحيـة أخرى أن الأبيات التى ذكرها صاحب « جامع الأصول » وجعلها تعبيراً عن فكرة « الخلّة » ، هى من الأبيات المنسوبة

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد الملطى : « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » ص ٩٠ — ص ٩١ من مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٥٩ .

إلى رابعة ، بدت لنا أهميـة هذا المذهب فى بحثنا عن نظرية الحب عند رابعـة .
فقد ذكر صاحب «القوت» أن هذه الأبيات لها فقال : «ومن قولها النادر فى مقام الخلّة . . . » ، ثم يأتى بذينك البيتين ، كما أنه يقول قبل هذا مباشرة : « وقد كانت (أى رابعـة) تذكر الأنس فى وجدها وترتفع إلى وصف معنى الخُلّة فى قولها السائر :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منّى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى »[1]

وبغض النظر عما لنا على صحة نسبة هذه الأبيات إلى رابعـة من اعتراض ، فإننا نكتفى هنا بإبراز ما قصدنا إليه وهو أن أبا طالب المكى كان يرى أن رابعـة قد « ارتفعت إلى وصف معنى الخُلّة » ، وأن لهـا أقوالاً « نادرة » فى مقام الخلّة ؛ وقوله « نادر » معناه هنا « بديع » ، « جيد كل الجودة » إلخ .

وإذن شاركت رابعةُ صـديقَها رياحاً القيسى فى القول بمقام الخُلّة ، فيجب أن ندخل ذلك فى نظريتها فى الحب . ولعل هذا أن يفسّر لنا تطور نظرية الحجّ لديها إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يفسّر ذلك على أنه كان على وجه « الخُلّة » بينها وبين الله . أجل ، ليس عنـدنا من الوثائق ما يكفى لبيان المدى الذى بلغته فى القول بالخُلّة ؛ بيد أن اعتبار هذا المعنى قد يفيد فى إيضاح بعض الجوانب الغامضة من مذهبها . ومن هنا نرجّح أنها لا بد أن تكون قد شاركت صديقها رياحاً فى إيجاد هذا الرأى ، أعنى القول بالخلة مع ما تقتضيه من إباحة أو سقوط للتكاليف ، أو فى القليل آمنت به وسلكت وفقاً لما يقتضيه .

على أن مقام الخُلّة هذا يمكن أن يفسّر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير

(١) أبو طالب المكى : « قوت القلوب » ؛ وأورده الزبيدى فى « إتحاف السادة » ج ٩ ، ص ٥٧٧ .

والشر . ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا . أمّا وهما — رابعة ورياح — قد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية ، واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت وتخللت روحيهما نفحات الربوبية ، ثم هما من جانب آخر قد خرجا عن الدنيا وأصبحا يطوّفان بالملأ الأعلى ، فإنهما قد صارا بمعزلٍ عن تلك القيم الأخلاقية ، أعنى فوق مستواها .

وهذا رأى خطير ، خصوصاً فى مثل هذا العصر المبكر للفكر الإسلامى . فهو يدل على نضوج سريع لهذا الفكر من ناحيتى الدين والروحية العليا ، وبخاصة إذا لاحظنا أن من العسير أن نجد لمثل هذه الأفكار سوابق فى الأفكار الشائعة فى تلك البيئة ، حتى يكون تأثّر عنها . ويلوح كذلك أن هذا المذهب لم يجد صداه السريع ؛ بل لا بد أن ننتظر الحلاج فى نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع كيما نجد صورة واضحة قوية له .

— ٨ —

نظرية رابعة إذن فى الحب يدخل فيها معنى الخُلّة ؛ لكن هذا هو الجانب العملى أو الأخلاقى . أمّا الجانب العاطفى الخالص فيتمثل فى بعض الأبيات المنسوبة إليها ، وفى الأقوال التى يروى أنها تفوهت بها .

وأشهر هذه الأبيات تلك الرباعية المشهورة :

أُحبُّك حبين : حبَّ الهوى ، وحُبّاً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبُّ الهوى فشغلى بذكرك عمّن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا [1]

---

(١) «إتحاف السادة» ، ج ٩ ص ٥٧٦ .

وأول ما تثيره هو صحة نسبتها إليها . فكما يقول المرتضى الزبيدى : «حملها عنها (أى نسبها إلى نفسه) أهلُ البصرة وغيرُهم : منهم سفيان الثورى وجعفر ابن سليمان الضُّبَعى وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد » . على أن هذا ليس بدافعٍ للشك الجدّى فى إمكان صحة نسبتها إليها ؛ فإلى أن يقوم دليل عكسى ثابت بالوثائق الجازمة ، نستطيع أن نعـدّها لرابعـةَ حقاً .

فى هذه الأبيات تميز رابعةُ بين نوعين فى الحب : حب الوداد أو الهوى ، والحبّ الخالص . والأول حب ناقص ، والثانى حب كامل . بيد أنها لا تختار هنا بين الواحد والآخر ، إنما تأخذ بهما معاً . ومن هنا فنحن نفترض لهذه الأبيات عهداً مبكراً شيئاً ، لم تكن قد بلغت فيه بعدُ المقام الأعلى للحب .

ولنبدأ بحثناهنا ببيان التفسيرات التى أدلى بهاالصوفيةلهذه الأبيات ؛ فنجد أول مانجد أبا طالب المكى فى « قوت القلوب »[1] يفسرها هكذا : « فأما قولها : حب الهوى ، وقولها : حب أنت أهلٌ له ، وتفرقتها بين الحبين ،فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويَخْبُرَهُ من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكارٌ من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ، ولا قدر له به ؛ ولكنّا نُجْمِـل ذلك وندل عليه مَن عرفه : معنى حب الهوى : أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا مِن خبر وسمع تصديق ، من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك عَلَىّ ؛ ولكن محبتى من طريق العيان ، فقَرُبْتُ منك ، وهربتُ إليك ، فاشتغلتُ بك لَمّا تفرغتُ لك ، كما قال المحب :

فـرَّغَتْ قلبَها اشتغالاً بذكرِي ... وكذا كلُّ فارغٍ مشـغولُ

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً » ، أى ملآن

(١) أبو طالب المكى : « قوت القلوب » ، حـ ٢ ص ٥٦ وما يليها . وأورده المرتضى الزبيدى فى : « إتحاف السادة » ، حـ ٩ ص ٥٧٧ .

بذكره حتى فاص فكادت أن تظهره فتقول : هو ابنى . فعبّر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكَظَمَتْ ، ولو لم تفعل لأظهرَتْ ، ولو أظهرَتْ لقُتِل .

وأما الحب الثانى الذى هو أهلٌ له : تعنى حبَّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محلّ الرضوان ، لأن حُبّى لك لا يوجب لك جزاءاً عليه ، بل يوجب عَلَيّ كلَّ شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبداً ؛ إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوفُ التقصير ، ووجب عَلَيّ الحياء من قلة الوفاء ، والخوفُ لما تعرضتُ به من حُبّك ، إذ ليس كمثلك شىء ، كما قال المحبُّ :

أصبحتُ صــبّاً ، ولا أقول بمَنْ خوفاً لمن لا يخاف من أحد
إذا تفكّرتُ فى هـــواى له لمستُ رأسِى : هل طار عن جسدى ؟!

لولا أن الحب يُنْطِق ، والشوق يُقْلق ، والوجد يُحرِق . فالمحبُّ لا يلام لغيبة النفس عنه ، وإلا نام. تقول (أى رابعة) : فتفضّلتَ علىّ بفضل كرمك ، وما أنت لهُ أهلٌ من تفضُّلك ، فأريتنى وجهك عندك آخِراً ، كما أريتَنيه اليومَ عندك أولا ؛ فلكَ علىّ ما تفضلتُ به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولا حمْد لى فى ذاك هناك ، إذ كنتُ أنا وصلتُ إليهما بك؛ فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما . فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين » .

وخلاصة تفسير أبى طالب المكى هذا هو أن حب الهوى هو الصادر عن طريق النعم والإحسان ، أعنى الحب الناشىء عن المنح والهبات والأفضال ، فهو حبّ التنعم بأنعم الله ، هو حب حسّى ، لأن المقصود بالنِّعَم هنا النعم المادية ، لا الهبات القدسية . بيد أن هذا الحب ليس متغيراً بتغير أحوال النعم : فإذا كثرت

زاد وإذا قلت نقص؛ إنما هو حب ثابت ، لأن صاحبه نظر إلى المعنى الكامن وراء النعمة أيّاً كان مقدارها ، وهو معنى لا يتغيّر ، لأنه مجرد الفضل ، ودليل الرضا ؛ فهو إذاً لا يتجزأ ولا يختلف باختلاف المُنْعَم به ، وبهذا يلحق بالمعنى الروحى اللامادى . وإذن فالاختلاف بينه وبين الحب الآخر ، الخالص « لوجه العظيم » ، ليس فى ماهيته بقدر ما هو فى دواعى إثارته ومصادر إيجاده . ولهذا كان عن طريق العيان المباشر .

أما الحب الذى هو أهلٌ له فهو — فى تفسير صاحب « القوت » — «حبّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال » ـ أعنى أنه الحب الذى لم يكن باعثه نعمة ، ولا مدخل فيه للمتعة الحسية ، بل باعثه المحبوب نفسه لذاته وبذاته . وهذا الحب لا يستوجب جزاء عليه ، بل كل الواجبات تقع على المحبّ وحده ، وهى واجبات إنما يفرضها مجرد الحب ، ويستلزمها مجرد وجود المحبوب ؛ فلما كان وجوده لا متناهياً ، فإن الحب لا متناهٍ ، والواجبات هى بالتالى لا متناهية ، ولذا يوجب هذا الحبُّ على المحبوب كلّ شىء مما لا يطيقه ولا يقوم بحقه فيه أبداً . ومن هنا مازجه الخوفُ : الخوف من عدم الوفاء بالواجب ، وهو خوف دائم لأن الواجب فى هذه الحال هو كما قلنا لا يفنى أبداً ، ولا يقوم المرء بحق المحبوب فيه أبداً . ومن هنا أثيرت هذه المسألة التى ذكرها المحاسبى فقال : « قيل لمُضَر القارىء : الخوفُ أولى بالمحب أم الشوق ؟ فقال : هذه مسألة لا أجيب فيها : ما اطلَعتْ النفسُ على شىء قطُّ إلا أفسدته » .(١) على أن هذا الخوف هو الذى يثير القلق فى الحب ، والقلق هو الذى يهب هذا الحب — بالرغم من طابعه السكونى الاستاتيكى — جانباً حركياً ديناميكياً ظاهراً ؛ وهو جانب لا ينتهى إلا فى مقام الوصول الكامل ، وأنّى للصوفى الحقيقى أن يبلغه ! هيهات ! هيهات !

(١) أورده أبو نعيم فى « حلية الأولياء » ، ح ١٠ ، ص ٧٨ . القاهرة سنة ١٩٣٨.

وهذا المعنى أفاض فيه المحاسبي في الموضع نفسه فقال : « الحب لله فى نفسه استنارةُ القلب بالفرح لقربه من حبيبه . فإذا استنار القلبُ بالفرح استلذ الخلوة بذكر حبيبه . فالحب هائج غالب ، والخوف فى قلبه لازمٌ لا هائج ؛ إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية، وهُدِى لأركان شدة الخوف، وحل الأُنْس بقلبه لله — فعلامة الأُنْس استثقالُ كلِّ أحدٍ سوى الله . فإذا ألِف الخلوةَ بمناجاة حبيبه ، استغْرَقَتْ حلاوةُ المناجاة العقلَ كُلَّه حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها . ومن ذلك قول ضيغم العابد : عجباً للخليقة كيف استنارت قلوبُهم بذكر غيرك ! ! » . وفى هذا وصف جيد دقيق لهذا « الحب لله فى نفسه » ، وهو ما تعنيه رابعة بالحب الثانى الذى « هو » (أى الله) أهلٌ له .

ثم يتابع صاحب «القوت» تفسيره فيقول إن الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخراً ، كما أراها وجهه عنده ذلك اليومَ أولاً ؛ ومعنى ذلك أن الله قد تفضل عليها فى هذه الحياة الدنيا بمعاينة سُبُحات وجهه ، وكذلك سيتفضل عليها برؤيتها إياه فى الآخرة . فكأن قولها : « ذا » ، يشير إلى المعاينة فى الدنيا ، وقولها : « ذاك » يشير إلى المعاينة فى الآخرة . ثم إنها لا ترى لنفسها فضلاً فى هذين الأمرين ، بل لله وحده الفضل فى كليهما ، وله وحده الحمدُ على كليهما ، لأن الظفر بهما كان عن طريقه .

وهذا التفسير كله لا نكير عليه ، إلا شيء من عدم التوفيق ، خصوصاً فى جانب حب الهوى . على أنه حاول أن يربط بينهما عن طريق فكرة المعنى الباطن فى النعمة ، لا كمها أو كيفها ، مما أضفى على حب الهوى طابعاً روحياً ظاهراً . ووفق خصوصاً فى إبراز فكرة العيان المباشر فى الحب الأول لأنها معقد الصلة بين كلا الحبين ، إذ أن فى هذه المعاينة المباشرة ما يضمن الجانب الروحى فى حب

---

(١) المرجع السابق ، حـ١٠ ، ص ٧٩.

الهوى . إنما الذى يؤخذ عليه هنا هو أنه بالغ فى إيضاح فكرة العيان بالنسبة إلى حب الهوى ، حتى جعله يتجاوز عن مقصودها الحرفى . فهى تقول إن حب الهوى هو شُغْلها بذكر الله عمن سواه. فهى إذاً فى مقام الذكر؛ وحقيقة الذكر هى، كما يقول الكلاباذى ، « أن تنسى ماسوى المذكور فى الذكر[1] » ؛ فهونسيان كل شىء ، وذكر شىء واحد هو الله . ولذا يتم على مرحلتين : نسيان ماسوى الله ، والتخلص من هذا النسيان . وفى هذا يقول صاحب « جامع الأصول[2] » : « الذكر : وأصله هاهنا الخلاصُ من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق .وصورته فى البدايات : الذكر الظاهر ؛ وفى الأبواب : الذكر الخفى ؛ وفى المعاملات : ذكر الفعَّال لما يريدُ — رؤية الأفعال كلها منه والأمور كلها بيده ؛ وفى الأخلاق ذكر الأخلاق الإلٰهية والتشوق إلى التخلق بها . ودرجته فى الأدوية : تلقى المعارف والحقائق منه ، وإلقاء السمع فى إسْرارٍ إليه . وفى الأحوال : لزوم المسامرة والمناجاة . وفى الولايات : دوام المصافاة والمناغاة . وفى الحقائق : دوام المشاهدة والمعاينة . وفى النهايات : شهودُ ذكر الحق إياك ، والتخلص من شهودِ ذكرك إياه ، ومعرفة افتراء الذاكر فى بقائه مع ذكره » . فمن هذا يتبين أن فى الذكر مشاهدة ومعاينة ، ولكنها ليست معاينة الوجه للوجه بعد كشف الحجاب ؛ وإلا اختلط حب الهوى وحب الله فى نفسه ، أو الحب الذى هو أهل له . ورابعة حريصة على توكيد التفرقة فى هذه الرباعية . أجل ، قد تنتهى إلى المزج بينهما لما أن يبلغ الذكر مرتبة الحقائق ثم يصاعد منها إلى مرتبة النهايات ؛ بل هذا هو ما حدث لها فعلاً ؛ بيد أنها فى هذه المرحلة التى تعبّر عنها هذه الأبيات لمّا تفعلْ بعدُ .

---

(١) أبو بكر الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ٧٤ القاهرة ١٩٣٣ م

(٢) ص ٣٥١ .

إنها لا تزال تقول بثنائية فى الحب : حب المذكور ، وحب الذكر ؛ ولم تفعل بعدُ ما سيفعله الحلاج من تفضيل حب المذكور (= حب الله فى نفسه ، الحب الذى هو أهل له) على حب الذكر (= حب الله لنِعَمه ، وهو حب فيه متعة حسية شخصية)[١]. فمتى رَفَعت رابعةُ هذه الثنائية ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نعود فنتمم ما يتصل بتلك الأبيات . فنقول إنه عن تفسير أبى طالب المكى هذا أخذ الغزالى فى « الإحياء »[٢] ، فقال : « ولعلها أرادت بـ « حب الهوى » حبَّ الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة — ؛ وبـ « حبه لما هو أهل له » الحبَّ لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبّين » . والغزالى بهذا لم يفعل إلا أن نقل ملخصاً كلامَ صاحب « القوت » بحروفه ، شأنه فى أغلب فصول كتابه « الإحياء » فى الموضوعات المشتركة بينه وبين « قوت القلوب » ، مما يعطينا شاهداً آخر على مقدار ما لدى الغزالى من أصالة !! والزبيدى[٢] فى شرحه « للإحياء » قد أشار إلى هذا فى هذا الموضع نفسه فقال بعد إيراد تلك الأبيات التى وردت فى نص « الإحياء » : « وقد تكلم صاحبُ « القوت » على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار ، يعرفه من رُزِقَه (= الحب) وينكره من حُرِمه . والمصنف (= أبو حامد الغزالى) رحمه الله أشار إلى زُبْدة كلامه (= أى كلام صاحب « القوت » ، أبى طالب المكى) » .

فلنمض عن الغزالى إذن إلى الشيخ الحريفيش الذى ذكر هذه الأبيات فى إطار آخر وإن كان بصدد الحديث عن رابعة ، فقال : « قال سعد بن عثمان :

---

(١) راجع : ماسينيون : « عذاب الحلاج » ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٤ ، وراجع خصوصاً : ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ١٩٣ ، باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) المرتضى الزبيدى : « اتحاف السادة » ، حـ ٩ ، ص ٥٧٧ .

كنتُ مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، و إذا بشخصٍ قد أقبل ، فقلتُ : يا أستاذ ! شخصٌ قد أتى . فقال لى · انظرْ من هو ، فإنه لا يضع أحدٌ قدمه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرتُ فإذا هى امرأة . فقلتُ : إنها امرأة. فقال : صِدّيقة وربِّ الكعبة . فابتدر إليها وسلّم عليها فقالت : ماللرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ، ولستُ من أهل التّهَم . فقالت : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملكِ على الدخول فى هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل — قوله تعالى « أَلَمْ تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها ؟!» . — فقال لها : صِفِى المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارفٌ بها ، وتتكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها ؟! فقال لها : للسائل حقُّ الجواب . فأنشدت تقول : أحبك حبين ... »[1] ثم يأتى بالأبيات الأربعة .

وواضح أن هذه القصة أسطورية إن قصد بهذه المرأة رابعة كما يريد المؤلف أن يومىء إليه . وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ (= سنة ٧٩٦ م) أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ؛ فهنا استحالة تاريخية إذن . و إنما هى من تلك الأقاصيص الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى لو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ؛ ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيفون فى التواريخ نفسها حتى ييسروا هذا التلاقى . والعلة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء هى تواتر السند بحيث يتصل الإسناد الحىُّ ، لأن فى اتصاله ضماناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه : كما هو شأن الروح العربية فى كل تصوراتها : ففى النبوة[2] تحرص على التسلسل

---

(١) الشيخ الحريفيش : «الروض الفائق فى المواعظ والرقائق» ، المطبعة الميمنية ، القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ — سنة ١٨٨٦ م ، ص ١١٧ — والآية من سورة النساء رقم ٩٩ .

(٢) راجع كتابنا : « الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى » ، ص ١٤٣ — ص ١٤٤ ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قِوامها الحقّ لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين ؛ وفى الرواة ، المحدثين ؛ وفى الإجازات فى مختلف مرافق الحياة الدينية . فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الفذة فى عالم الروح العربية — ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخى الحىّ المتصل — : أعنى أن العلة هى القضاء على الذاتية ، وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ؛ ولذا نرى الإجازة الحقيقية، أو الإسناد الحق ، لا بد أن ينتهى بالنبى أو المَلَك الصادر مباشرة عن الله فى خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها فى هذا الباب فكرة المصافحة وتسلسلها التاريخى حتى تنتهى بالنبى ، والرسائل عديدة فى موضوع المصافحة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها [١] .

إنما تفيد فى بيان الفكرة التى كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولما كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة . فإذن كان فى تقدير الصوفية أن رابعة هى التى لقنت الناس مذهب المحبة ؛ فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة . لهذا نرى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى ، رابعة .

على أنا نرى هذه القصة ترد بصورة أخرى فى كتاب « مصارع العُشّاق » لأبى محمد السّراج القارى [٢] ، صورةٍ قد ازداد زخرفها وارتفعت نبرتها ، ومن هنا

---

(١) راجع مثلا « مصافحة الرسول صلى الله عليه وسلم » لملا قاسم التويجرى النقشبندى القادرى ، وفيها يبين تسلل المصافحة منه إلى شيخه ثم من شيخ إلى شيخ حتى يرتفع إلى النبى ، فى مخطوطة الفاتيكان برقم ١٢٤٢ ورقة ٣٢ ب إلى ٣٣ ، وراجع فهرست مخطوطات برلين ١٦٠٦ — ١٦٠٨ وفهرست مخطوطات الفاتيكان لليفى لافيدا ص ١٩٢ .

(٢) ص ١٨٠ — ١٨١ ، طبع الجوائب باستانبول سنة ١٣٠١ — ١٨٨٣ م وقد نقلها ، عن السراج ، الزبيدى فى « اتحاف السادة » حـ ٩ ص ٦٨٨ .

انتهت على هيئة مأساة . ذكر السّراج القارى فقال : « قال ذو النون : بينا أنا أسير على ساحل البحر ، إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شَعَر ؛ و إذا هى ناحلة ذابلة. فدنوتُ منها لأسمع ما تقول . فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان. وعصفَتْ الرياحُ واضطربت الأمواج وظَهَرَتْ الحِيتان ، فصرخَتْ ثم سقطَتْ إلى الأرض . فلما أفاقت بُحَّت (!) ثم قالت : سيدى ! بك تقرّب المتقرّبون فى الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحارالزاخرات ، وللجلال قدسك تصافقت الأمواجُ المتلاطمات . أنت الذى سجد لك سوادُ الليل وضوء النهار ، والفلك الدَّوَّار ، والبحر الزَّخَّار ، والقمرُ النَّوَّار والنجم الزَّهَّار ؛ وكلُّ شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلىُّ القهّار :

يا مُؤْنِسَ الأبرارِ فى خَلَوَاتهم   يا خيرَ من حَلَّتْ به النُّزَّال
مَن ذاق حُبَّك لا يزال متيماً   فَرِحُ الفؤادِ — متيماً — بلبالُ
مَن ذاق حُبَّك لا يُرى متبسماً   من طول حزن فى الحشا إشعالُ

فقلتُ لهـا : زيدينا من هذا ! فقـالت : إليك عنى . ثم رَفَعتْ طرفها إلى السماء ، وقالت :

أحبُّك حبين : حبَّ الوداد   وحُبّاً لأنك أهلٌ لذاك
فأما الذى هو حبُّ الوداد   فحبٌّ شُغِلْتُ به عن سواكْ
وأما الذى أنت أهلٌ له   فكَشْفك لِلحُجْبِ حتى أراكْ
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى   ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاك

ثم شَهِقَتْ شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا . فبقيتُ أتعجب مما رأيتُ منها ؛ فإذا بنسوةٍ قدأقبلن ، عليهن مدارع الشَّعَر ؛ فاحتملنها ، فغيبنها عن عينى ، فغَسَّلنها ثم أقبلن بها فى أكفانها ؛ فقلن لى : تقدَّمْ فصَلِّ عليها . فتقدمتُ وصليتُ عليها وهُنَّ خلفى. ثم احتملنها ومضين». والقصة لا شك رائعة ، لكنها تنسب كلها إلى

أسطورة رابعة ، وما ذكرناها هنا إلا لأنه وردت فيها أبياتنا هاتيك . وكما هو الشأن دائماً في القصص حينما يتقادم بها العهدُ ، ضاع اسم رابعة ، ونسبت الأسطورة إلى جارية مجهولة ؛ ثم رقت حواشيها فأمعن فيها إزميل الخيال المثّال ، وتداعت أطرافها فصال فيها الفنُّ المسرحي وجال : فكان افتتاحٌ prologue في هذه النجوى التي وجهتها إلى الله ، وكان وصف لتجربة العشق الإلهى العنيفة القاسية ترددت فيها الأحداث الباطنة على مسرح القلب ، فلما بلغت العقدة ، بأن ارتفعت بالحب إلى حب الجلال والجمال ، حب الله في ذاته ولذاته ، كانت الخاتمة فأسدلت ستور مأساة غرامها الإلهى على مشهد أولئك الملائكة — النسوة اللائى رفعنها إلى حيث ترقد رقدتها الأخيرة في السماء ، وكأنها جرتشن في « فاوست الثانى » ؛ لكن الذى رفعها إلى عليين لم يكن الأنوثة الخالدة Das Ewig=weibliche ، بل العشق الإلهى الشهيد . لكن من يدرى ! فلعل الأنوثة الخالدة والعشق الإلهى سيّان :

وعدم ذكر اسم رابعة في كلتا الروايتين المتقدمتين لا يمكن أن ينهض دليلا على أن الأبيات ليست لرابعة ، خصوصاً إذا لاحظنا تأخر زمن صاحبيها ، وما اعتورهما من ألوان التزيق المشكك في صحة الروايتين إجمالا . بل يجب أن نضع اسم رابعة مكان الجارية « في الرواية الثانية » ، « والمرأة الصدّيقة » في رواية صاحب « الروض الفائق » ؛ ثم نضيفهما معاً إلى أسطورة رابعة دون أن يقدح ذلك في صحة بعض قسمات هذه الأسطورة تاريخياً ، ومن بينها صحة نسبة الأبيات الأربعة إليها . على أن مجرد صياغة أمثال هذه الأساطير أنصع دليل على قيمة هذه الأبيات ، مما حمل الرواة على أن يبتدعوا لها إطاراً رائعاً يتفق وجلالها وعمق معناها ؛ ولعل هذا أن يفسر لنا السرّ في ألوان التزويق والاستعراض المسرحى الذى عمل من أجلها .

وفى وسعنا الآن بعد هذا العرض التاريخى لتفسير هـذه الرباعية أن نجمل المقصود منها فنقول إن رابعة كانت لا تزال فى ذلك الحين تترجّح بين حبين : حب الهوى ، أو حب الوداد ، وهو حب مبعثه نِعَم الله على العبد ، وهو لهذا ليس خالصاً لوجه المحبوب ؛ والذكر فيه — وإن اقتصر على المحبوب — فإنه لا يزال يجول فى ليل الحواس ، لأنه تجريد مستمر للمحسوس ، وبالتالى ذكر للمحسوس ، وفى الذكر بقية من التعلق . ثم حب الله فى نفسه كما يقول المحاسبى ، أو « الحب الذى هُو (= الله) أهلٌ له » كما تقول هى ، وهو حب لا باعث له إلا المحبوب نفسه ، وليس فيه حب للذكر ، أى النعمة والمحسوس ، بل هو حب للمذكور وحده ، ولوجه ذى الجلال والإكرام . وفيه تنكشف الحجب حتى تتيسر المعاينة . وليس فى قولها هنا ما يؤذن صراحة بأنها ظفرت بهذه المعاينة فعلا لوجه الله ؛ بل هى فى معرض الوصف لما عسى أن يؤدى إليه هـذا الحب . وهى لا تزال تشعر بأن ظفرها بالغاية فى كلا النوعين من الحبّ لا يمكن أن يأتى إلا عن طريق الهبة من الله ، شأن ذلك شأن التوبة كما رأينا آنفاً ؛ مما يؤكد مرة أخرى أنها لا تزال فى الدور السلبى الذى تتلقى فيه كل شىء عن الله ، فلا تزال إذن فى حال انفعال مطلق بالنسبة إليه .

— ٩ —

لهذا كان عليها أن تناضل فى طريق الحب حتى تحيل الجانب السلبى إلى جانب إيجابى ، شأن كل صوفى حق . لأن السلب هو دور تمهيدى فحسب ، فلو اقتصر عليه الصوفى لما وصل . ويمكن أن يشبه الأمر هنا بأمر العقل الفعّال وأمر العقل المنفعل : فهذا الأخير مرحلة تمهيدية ، فيها تقبُّل خالص للصور منطبقةً على المحسوسات ، ولا يزال المرء فيه عالة على الخارج ؛ وإنما يبلغ العقل مرتبة

الكمال إذا استحال إلى عقل فعّال ، يبدع المدركات ويفيض بالمعقولات . فمَثَل العقل الفعال والعقل المنفعل هو مَثَل الدور الإيجابى والدور السلبى فى طريق التصوف ، ومنه طريق المحبة .

لكن الانتقال والتصاعد من دور السلب إلى دور الإيجاب ملىء بالمتاعب والمجاهدات وألوان الألم وخيبة الأمل . وكلنا يذكر تلك الصفحات الرائعة التى كرسها صوفى مثل يوحنا الصليبى San Juan de la Cruz لما يعانيه المرء فى « الليلة الظلماء » . فماذا كان حال رابعة فى ليلتها هى الظلماء ؟

لدينا عنها روايات وأقوال ، يأتى على رأسها ما حكاه العطار فى « التذكرة » فقال : « يحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما ثمت ألم عساك تشكين منه ؟ فأجابت : واحسرتاه ! العلة التى أشكوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجه . إنما دواؤها الوحيد رؤية الله . وما يعيننى على احتمال هذه العلة إلا رجائى أن أحقق غايتى هاتيك فى العالم الآخر » .

ما أشبه قولها هذا بقول أوغسطين : « أموت من كونى لا أموت كيما أرى وجهك » ! كلاهما يسعى لرؤية الله ، لكنه لم يبلغ بعدُ مرتبة تسمح بتحقيق هذه الرؤية ؛ فقَنِطَ من بلوغ هذه الدرجة فى الدنيا ؛ ولذا يطلب الموت لأنه وحده الذى سييسر السبيل إليها . إنه إذن فى حال اليأس من البلوغ ، والقنوط من الوصول .

وما أبدع العبارة فى وصف ما تشكوه ! لقد ألحّت عليها الرغبة فى الرؤية ، حتى استحالت مرضاً ، مرضاً تألم له ، لأن الحب قد صار من القوة والنفوذ بحيث صارت له آثار توغل فى أعماق الروح فتصيبها بالعلّة . هنا « المرض حتى الموت » من شدة الألم العالى ؛ هنا « الصرخة من أعماق الهاوية » ، هاوية الليلة الظلماء للحواس ، وإن كانت تبذل كل ما وسعها للخلاص منها ؛ بل هى فى عروج من

« ليلة الحواس » إلى « ليلة الروح » ، لكنها لا تزال تتخبط فى الظلام ، وهيهات بعدُ أن يبزغ الفجر . نعم، إن طائفاً من النور يطوف بروح رابعة بين الحين والحين، وهو طائف « الرجاء » المنحدر إليها من حفافى عِلّيين ؛ لكنه نور محجوب ، نور خاطف ، نور يصارع الليلة الظلماء فى لهفة و إعياء كأنه الخيوط الأولى المتناثرة فى صفحة الأفق الوسنان . ومع هذا فلتتعلّقْ بأهداب هذا النور الخاطف ، ففيه من الرؤى ما يعينها على أن تتذوق مقدّماً Avant-goût أثارة مما ستتذوقه بعدُ فى الحضرة الكاملة . هى رؤى من نوع تلك التى وصفها يوحنا الصليبى فقال : «تتخطف البصر صُوَرٌ ... ورؤى للقديسين والملائكة ...وأضواء و إشعاعات ... وتسمع الأذن كلمات غريبة ...؛ و يستروح الشمُّ عطوراً فاغمة ...؛ و يستطيب الذوق طعوماً شهية محضة الحلاوة ؛ ويحسُّ اللمس نعومةً عميقة . لكن هذه الظواهر جسمانية على الأخص ، لهذا لا بد من الظن أنها ليست من مصدر إلهى » [(١)] . فلا بد من استبعاد حتى هذه الصور نفسها ، خوفاً من أن يقتصر عليها المرء فتزلّ قدمه، أو بالأحرى يحسب نفسه قد وصل وما كان من الواصلين. ولذا فإن فى بوارقِ هذا الرجاء من الغَرَر بقدر ما فيه من الفائدة .

إن هذا الرجاء فى الآخرة ، وهو الاشتياق إلى الجنة، لا يزال متلبساً بالمحسوس لأنه يفترض أن الحب لا يزال يطلب جزاءاً ، وأنه ليس خالصاً لوجه الله ، بل فيه طمع فى الجنة ، طمع فى مادى محسوس . ومن هنا كان عليها أن ترتفع فوق هذه المرتبة التى تعبّر عنها القصة التى رواها العطار ، فتفعل ما سيفعل يوحنا الصليبى من اطّراح هذه البوارق الخداعة . وذلك بأن تعدّ فى الشوق إلى الجنة نفسها خطيئة ؛ وهو ماعَبّرَتْ عنه أجمل تعبير فيما حكاه الكلاباذى فى كتاب « التعرف

---

(١) يوحنا الصليبى : « صعود الكرمل » ، ج ١ ص ٩١ ترجمة هـ . هورنائير ، باريس سنة ١٩٢٣ : Saint Jean de La Croix : Montée du Carmel, tr. H. Hornaert

لمذهب أهل التصوف » فى باب « لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم » فقال : « دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله ما أعرف لِعلّتى سبباً ! عُرِضَتْ علىَّ الجنةُ فمِلْتُ بقلبى إليها ؛ فأحسبُ أن مولاى غار علىَّ فعاتبنى ؛ فله العُتْبى »[1] . وقد روى ذلك المناوى فى « طبقات الأولياء » فقال : « ومَرِضَتْ (أى رابعة) ، فقال لها عُوّادها : ماسبب عِلّتك ؟ قالت : نظرت بقلبى إلى الجنة فآذانى ، فتبْتُ أن لا أعود »[2] . والمعنى قريب فى كلتا الروايتين ، وخلاصته أنها صارت تعدُّ النظر بقلبها إلى الجنة بمثابة إثم اقترفته ، يعاقبها اللهُ عليه ؛ ولذا تابت عنه وقررت أن لا تعود إليه . فبينما فى رواية العطار السالفة نرى رابعة لا تزال ترمق الجنة بنظرها وتضع رجاءها فيها ، نجدها هنا ترى فى هذا منكراً تستحق من أجله العقاب ، أو فى القليل العتاب من الله . وهذا يؤذن بتطور هائل فى سلوك رابعة — إنها الآن فى مقام قاب قوسين أو أدنى .

— ١٠ —

ألا فلتتقدمى إذن بكل شجاعة فى هـذا الطريق ، أى رابعـة ! لقد بدأت الخطوة الأولى فى المرحلة الحاسمة النهائية ، فماذا يحتجزك ؟ أبقية من تقاليد وأوضاع ، وسُؤار من سُنّة فقهاء ، وحرف صامت جامد ؟ إذن فلتكسرى التقاليـد واتقلبى الأوضاع ! إذن فلتستنى سُنّة أخرى ، فما سنة الفقهاء إلا إحدى السُنن ، هى سنة المجموع والجماعة ، فلا تصلح للفرد الممتاز ! والحرف الصامت ماذا يخيفك منـه ؟ الحرف يَقتُلُ ، والروح تُحْيِي ؛ والحرف رمز ، والمقصود هو المعنى ، فهيّا أعلنى الثورة على الحرف القاتل كيما ترفعى راية الروح المحيية ؛ واتحطمى قيد الرمز ، حتى تنعمى مع الأرواح الزكية بالمعانى العالية المستورة ! تشجعى إذن وتقدمى غير هيّابة !

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ١٢١ ، نشرة آربرى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ . وذكر ذلك العطار فى « التذكرة » ، جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ عام ، ورقة ١٠٥ ب .

وتقدمت رابعة تمشى أولَ الأمر على استحياء لا يزال يشيع فى مثل قولها الذى لا بد أن ينتسب إلى ذلك العهد ، وهو ما رواه المناوى من أن سفياناً الثورى قال لرابعة : « ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكونَ كالأجير السوء . عبدتُه حباً وشوقاً إليه »[١] . فهى هنا تقتصر على وصف حالها الجديدة ، وهى أنها بدأت تدخل فى ملكوت « الحب الذى « هو » أهلٌ له » ؛ فلم تعد تحب الله إلا لله ، لا طمعاً فى الجنة ولا خوفاً من عذاب النار . فلهجتها لا تزال هادئة ، وكأنها إنما تريد أن تميز بين صنفين من العابدين : صنف يعبد الله على رغبة أو رهبة ، وصنف قد صار بمعزل عن الرغبة والرهبة وارتفع إلى معنى الحب الأعلى الذى لا يطلب من وراء ذلك غير وجه المحبوب ؛ وتكتفى بأن تدمغ الحب الأول بأنه حِب أجراء السوء ، أما الآخر فهو حب العابدين المتقين.

تلك إذن خطوة أولى ، فلتتبعْها بثانية بأن تبدأ فى عتاب الله نفسه على اتخاذه هذه المعانى : الرهبة والرغبة ، والتجائه إليهما فى دعوى الناس إلى طاعته . وإذا كانت قد بدأت العتاب ، فما ذلك إلا لأنها قد تحققت فى مقام الخُـلّة بينها وبين الله ؛ فلا تثريب عليها أن تلجأ إليه ؛ إذ ما أجمل العتاب بين الخِلاَّن ! وهل تقوم الخُـلّة والصداقة حقاً إلا مع العتاب ؟ ! لذا نراها تقول هنا ما يرويه المناوى أيضاً حين قال : « قال مالك بن دينار : أتيتها (أى رابعة) فإذا هى تقول : كم من شهوة ذهبَتْ لذتها و بقيَتْ تبعتها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدبٌ غير النار ؟ ! »[٢]

من هنا تبدأ الجرأة فى اللهجة لدى رابعة فى حديثها مع الله ، ولولا أنها بمقام الخُـلّة ، لنعتنا ذلك بالاجتراء بَلْهَ التطاول .

---

(١) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الصوفية » ، مخطوط الظاهرية، رقم ١٦٤ ٤عام ، ورقة ١٠٥ .

(٢) الموضع نفسه .

والآثار التى لدينا فى هذا الباب قليلة و ياللأسف الشديد، لا تكاد تتجاوز أثرين:
الأول ما أورده ابن تيمية فى رسالة سئل فيها أن يدلى برأيه فى بعض الأقوال الغريبة الواردة عن بعض الصوفية ، ومن بينها أنه « قيل عن رابعة إنها حَجَّت فقالت (أى وهى تشير إلى الكعبة) : هــذا الصنمُ المعبودُ فى الأرض ، وإنه ما وَلجه الله ولا خلاَ منه »(١) .

وابن تيمية يرى أن هذا القول لا بد أن يكون كذباً على رابعة ، لأنها كانت من الإيمان والتقوى بحيث لا يتصور صدور هذا عنها . ثم راح يفند هذا القول — أيا كان صاحبه ؛ قال : « وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود فى الأرض — فهو كذبٌ على رابعة . ولو قال هذا مَنْ قاله لكان كافراً يستتاب ؛ فإن تاب ، وإلا قُتِل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكن يعبدون ربَّ البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نُقِل من قولها : والله ما ولجه الله ولا خلا منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره فى هذا المعنى ؛ فلأى مزية يُطاف به ويُصَلّى إليه وَيُحَجُّ ، دون غيره من البيوت ! وقول القائل : ما ولج الله فيه — كلام صحيح . وأما قوله : ما خلا منه — فإن أراد أن ذاته حَالّة فيــه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل ، وهو مناقض لقوله : ما ولج فيه . فهذا — مع أنه كفر وباطل — يوجب ألا يكون للبيت مزيةٌ على غيره من البيوت ؛ إذ الموجودات كلّها عندهم كذلك »(٢) .

ويلاحظ على ابن تيميــة هنا أولا أنه يكذب هــذا القول على أساس عقلى يفترض فيه أن رابعــة — وهى التقية المؤمنة كما هو مشهور عنهــا ،

---

(١) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ، ج ١ ص ٦٢ ، القاهرة ١٣٤١هـ = سنة ١٩٢٢ م .

(٢) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ، ج ١ ص ٨٠ — ص ٨١ ، القاهرة سنة ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢م .

وابن تيمية يفهم التقوى هنا بمعناه الخاص ، أى السُّنّى الحرفى ـ لايمكن أن تقع فى مثل هذا الكفر ، — بيد أن هذا التكذيب يقتضى أن يكون هذا كفراً فى نظر رابعة نفسها ، حتى لايجوز لها أن تقول هـذا — وهو اقتضاء لاأصل له ، لأن رابعة ترى فى هذا سمواً بالإيمان ، مادامت هى فى سبيل التجريد عما هو دينى كلّ مايدل على المعنى الحسّى . وهـل أدلّ على المعنى الحسى من الكعبة ومايلابسها من طقوس ومراسم تتصل بالطواف وتقبيل الركن والمقام وما يشبه عبادة الحجر الأسود ورمى الجمار وما يقال فيه من دعوات ! ونقدها لهذا كله ـ ضمناً ـ ليس يصدر عن نفس الدوافع التى صدر عنها أمثال ابن الراوندى فى نقده « لرمى الحجارة ، والطواف حول بيت لايسمع ولا يُبْصر ، والعدو بين حجرين (الركن والمقام) لاينفعان ولا يضران : وهذا كله مما لايقتضيه عقل : فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبى قُبَيْس وحِراء ، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت(١) » . بل يصدر عن الإمعان فى السمو بالحياة الدينية بحيث تصفو من كل شوائب الحسّ . وابن تيمية قد أخذ هذا القول بما يؤخذ به أمثال أقوال ابن الراوندى هذه ، ومن هنا أنكر أن يكون ذلك القول لرابعة . فابن تيمية إذن قد أخطأ فهم المقصود من كلام رابعة ، وعلى أساس هذا الفهم الخاطىء بنى تكذيبه ، وما بنى على خطأ فهو خطأ ، وإذن فتكذيبه غير قائم على أساس صحيح . ولهذا فلا نستطيع أن نقيم له وزنا .

كما يلاحظ ثانياً أنه ، وقد كان يعرض الرد على القائلين بوحدة الوجود والقائلين بالحلول ،قد فهم هذا القول المنسوب إلى رابعة على أساس فكرة الحلول أو وحدة الوجود ، فأخطأ الفهم مرة ثانية ، لأن ما استهدفته رابعة ليس يقتضى الحلول أو وحدة الوجود إلا بتعسُّف لامدعاة له هنا ؛ لأن قولها « والله ماوَلَجَه الله

(١) راجع كتابنا : « الإلحاد فى الإسلام » ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، ثم ص ١٢٩ ـ ١٣٢ .

ولا خلا منه» — لا يقتضى غير التسوية بين هذا البيت و بين غيره من البيوت؛ فالاقتصار على هذا البيت وما استتبع ذلك من قيام نوع من الوثنية حوله هو اقتصار لامبرر له ، لأنه أسْرٌ للخليقة فى ربقة شىء معين يفضل على غيره ، مع أن المخلوقات تستوى عند الله من وجهة نظره ، والأشياء خصوصاً أكثر من الأحياء . وابن الراوندى حينما قال بهذه التسوية بين البيت المحرَّم و بين غيره من البيوت لم يقم ذلك على أساس من الحلول أو وحدة الوجود ، فما كان أبعدهما عن ذهنه ! كذلك رابعة : رأت أن الوقوف عند بيت دون آخر ، أى عند أثر من الخلق دون آخر ، فيه تضييق من أفق الخليقة ، وفيه حصر الألوهية ، فضلا عما فيه من حسيَّة فاضحة ، بل وشرك فى إضفاء جانب إلهى على هذا البيت المادى الفانى . وفى القرآن تنبيه على ما كان عليه أهل مكة من عبادة لهذا البيت ، وذلك فى قوله تعالى : « فليعبدوا ربَّ هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (سورة قريش : ٤) ، ففيه رد على أولئك الذين عبدوا ــ أو كادوا ــ هذا البيت من دون الله . و إذن فرابعة إنما تعطى لهاتين الآيتين كل معناهما وتتابع الغرض المقصود منهما حينما تقول قولها هذا عن البيت المحرم : إنه الصنم المعبود فى الأرض ، و إنه ماولجه الله ولا خلا منه .

و إنما الحلول هنا أن تغالى فى تقديس هذا البيت بحيث تشعر بأن الله كأنه حالٌّ به كما آل إليه أمر الحج ، على الأقل فى أذهان الجمهور من الناس : فهذا فعلا هو مايسميه ابن تيمية نفسه[1] باسم الحلول المعين ، لأنه القول بحلول الله فى شىء معين ــ إنسان أو جماد أو حيوان ــ وذلك فى مقابل الحلول المطلق .

ولهذا فكلام ابن تيمية هنا حافل بالمغالطات ، خصوصاً فى تجزئته تلك

---

(١) راجع ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ، جـ ١ ص ١٧٢ ، القاهرة سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

العبارة : « والله ماولجه الله ولا خلا منه » إلى جزئين ، جعل أولهما صحيحاً والآخر باطلا إن قصد به الحلول ، مناقضاً لقوله ماولج فيه ، متناقضاً فى نفسه إن قصد القول بأن الاتحاد ملازم له . و إنما كان عليه أن يأخذ القول جملة فيفهم منه إنكار الحلول المعين لأن الله لم يلج هـذا البيت بالذات ، إذ الله لا يحل فى شىء ، وهو حالٌّ فى كل شىء ، بمعنى أن كل شىء قوامه بالله ، ولـكن هذا لا يقتصر على شىء دون غيره . ففى تقديس البيت إلى ذلك الحد مايقتضى أن هذا البيت وحده قوامه من الله بينما غيره ليس قوامه منه ، وهذا هو الشرك بعينه .

والحق أن من المميزات الـكبرى للاسلام فى جوهره وأصوله ، أنه حاول دائماً منذ البداية ألا يقصر العبادة على مكان ، لأن كل مكان يصلح أن يكون بيت عبادة لله . وهو إنما أتى بهذا بمثابة ردّ فعل ضد اليهودية والمسيحية فى حصرهما عبادة الله فى مكان معين بالذات بحيث لا تصلح فى غيره . فالصـــلاة فى الإسلام يمكن أن تقام فى أى مكان ؛ أما فى اليهودية والمسيحية فلا بد أن تقام فى مكان بالذات : كنيسة أو بيعة على التوالى . والمعنى العميق فى اتجاه الإسلام هذا الاتجاه هو الإشعار بأن الألوهية فى كل موضع ، وأن كل مكان أخذته عامر بها وصالح بالتالى أن يكون بيت الربّ . وفـكرة المسجد أو الجامع لا تنطوى على أى معنى من معانى التفضيل لمكان دون مكان ، كما هى الحال فى فكرة الـكنيسة والبيعة ، إنما — كما يدل عليه اسمه — تنحصر فى فكرة الاجتماع فى مكان واحد تحقيقاً خصوصاً للمعنى المقصود من صلاة الجماعة و بخاصة صلاة الجمعة .

ألا إن فكرة عبادة الأماكن لفكرةٌ حاربها الإسلام الأول بكل قوة وعنف كما يظهر فى الآية التى أوردناها من قبل : « فليعبدوا رب هذا البيت » ؛ وكانت حملته هذه موجهة ضد تيارين : تيار اليهودية والمسيحية اللتين اقتصرتا على المكان المعين فحصرتا فيه إمكان العبودية والعبادة والصلاة ؛ وتيار الوثنية العربية التى

قدست البيت العتيق والحجر الأسود الذى فيه حتى كادت أن تجعله محلًا للألوهية. ولهذا كان على الإسلام السائر المتطور — لا ذلك الجامد المتحجر الذى يمثله أمثال ابن تيمية والسلفية عامة — أن يتابع تلك الحملة حتى تؤتى ثمارها الكاملة العامرة بالتسامى الروحى فوق كل ماهو حسّى أو مُشْعِر به ، فتزول البقية الباقية من الوثنية العربية : وهذا هو مافعلته رابعة العدوية ، ومافعله الحلاج من بعدها . لقد بَعَث النبىُّ الطلائع الأولى ، فعلى المسلمين على مرّ الزمان الأبدى أن يتابعوا الحملات حتى تتحقق الغايات البعيدة التى لَمَحَ من بعيد إليها دون أن يخطو فى السبيل إليها إلا الخطوات الضئيلة الأولى .

و إذن فالفكرة التى عنها صدرت رابعة فى هـذا القول فكرة ممتازة تنبع من صميم الإسلام الحىّ .

كذلك قولها الثانى . قال المناوى: «وسَمِعَتْ (أى رابعة) قارئاً يقرأ : «إن أصحاب الجنة اليوم فى شُغُل فاكهون »[1] — فقالت : مساكين أهل الجنة فى شغل هم وأزواجهم ! »[2] وكلمة « فاكهون » هنا معناها — فى كثير من التفاسير — : يفتضون الأبكار. ومن هنا امتعض ضمير رابعة من هذا المعنى الشهوانى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة إلى أعلى درجة من درجات الروحية . وقولها هذا — إن كان صحيحاً فى نسبته إليها ، وليس ثمت مايدعونا إلى الشك فى هذه النسبة — قد بلغ درجة خطيرة من الجرأة والاجتراء : فهو يتضمن أولا نقداً للقرآن وما فيه من أوصاف حسية شهوانية ؛ وهو يتضمن ثانياً طعناً فى الجوانب الحسية الشهوانية من الإسلام .

وهاتان مسألتان على أكبر جانب من الخطورة . ذلك أننا لانعلم فيما ورد

(١) القرآن : سورة يس : ٥٥ :

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٥ ب ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ .

إلينا من الأخبار سواء عن عهد النبي أو عن عهد الخلفاء والأمويين أن نقداً قد وجه إلى القرآن والإسلام من هذه الناحية : ناحية الحسية الشهوانية . فليس فى القرآن مايدلنا على وجود ذلك الجدل فى أيام النبي حول ما ورد فى القرآن من أوصاف شهوانية ،والقرآن هوأصدق وثيقة تصور لنا نقد الناقدين فى ذلك العصر؛ كذلك لم يكن ينتظر ، والبيئة كانت على ماتعرف من سذاجة وفطرية ، أن يصدر مثل هـذا النقد ، لأنه يفترض درجة عالية من التطور الروحى كان أهل تلك البيئة فى ذلك الحين بعيدين عنها .

أ كانت رابعة إذن أول من بدأ هذا النقد ؟

لن نستطيع الإيجاب عن هـذا بالإيجاب أيضاً ، وذلك لأن حركة الزندقة كانت قد قويت فى تلك الأثناء ـ وبخاصة فى الربع الثالث من القرن الثانى الهجرى ـ وانتشرت آراؤها إلى حد بعيـــد ، خصوصاً منذ أن صارت موضع اضطهاد عنيف من جانب الخليفتين المهدى والهادى فيما بين سـنة ١٥٣ هـ (= سنة ٧٦٩ م) وسنة ١٧٠ هـ (= سنة ٧٨٦ م) ، فكان طبيعياً أن تكون رابعة على علم بها ، مادامت الدولة قد شغلت بها إلى هذه الدرجة البالغة الخطورة(١) . أترى رابعة قد تأثرت بهذه الحركة أو كانت على صلة وثيقة بها ، مع الفارق الشاسع بين نواياها ونوايا أولئك الزنادقة ؟

فرضٌ نسوقه ولا نستطيع تحقيقه بيقين . لكننا لانرى مانعاً جدياً فى أن تكون قد تأثرت بتلك الأفكار التى أثارتها حركة الزندقة ، وبخاصة عند ابن المقفع الذى وجه عناية خاصة إلى القرآن وحاول معارضته ، ولابد أن يكون قد واكب هذا قيامُه بنقد القرآن ، ويجوز أن يكون قد تعرض لشىء مما تعرضت له

---

(١) راجع العرض التفصيلى لهذه الحركة فى كتابنا : « من تاريخ الإلحاد فى الإسلام » ، ص ٢٨ — ٧١ . القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

رابعة ، أى نقد الجانب الحسى فيه . بيد أننا لا نجد فى رد أبى القاسم الزيدى ، ولا فى المصادر الأخرى التى ذكرت زندقة ابن المقفع ، مايشير إلى هذا بوضوح[1] .

وخلاصة رأينا فى هذه المسألة إذن ، هى أن رابعة يمكن أن تعد أول من تعرض لنقد القرآن والإسلام من ناحية مافى القرآن من أوصاف حسية شهوانية تتصل بالجنة خصوصاً ، وأنها يمكن كذلك أن تكون قد تأثرت فى هذا بحركة الزندقة التى انتشرت فى ذلك العهد انتشاراً خطراً حمل الدولة على مكافحتها بكل شدة ؛ وأنها رمت من وراء هذا النقد ، لا إلى الهدم والطعن ، بل إلى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والإسلام إلى أعلى درجة من الروحية مستطاعة ، وكانت فى هذا تكافح خصوصاً ضد تيار المُشَبِّهة والمجسِّمة والحشوية ممن أرادوا أن يأخذوا القرآن بحروفه . ولهذا يمكن أن نعد قولتها هذه من آرائها الكلامية ؛ بيد أن إيجازها لا يسمح لنا بتفصيلٍ أوسع فى مذهبها الكلامى ، وكل مانستطيع قوله فى هذا الباب هو أنها كانت من خصوم المُشَبِّهة والمجسّمة .

وكان طبيعياً ، وهذه العبارة من الخطورة على النحو الذى بيّناه ، أن تجد لها كثيراً من الطاعنين عليها . وقد ذكر المناوى أن ابن عربى كان من هؤلاء . قال: « وعاب عليها ابنُ عربى هذه المقالة ، وقال إنها ماعرفت ، وإنها المسكينة ، فإنما شغلهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادىء الرأى والتعريض فى حق نفوسهم ؛ إنهم مُنزّهون عن ذلك[2] » . ومن هذا النقد نرى أن ابن عربى ينكر عليها هذا القول لأنها فهمت الآية هذا الفهم — لكن الذنب ليس ذنبها ، فالمفسرون — غالباً — يفهمونها بهذا المعنى ، أعنى : أن أصحاب الجنة مشغولون بافتضاض الأبكار . ولا شك فى أن هذا كان المعنى الشائع

---

(١) راجع المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٥٣ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى: «طبقات الأولياء» ، ورقة ١٠٥(ب) - ١٠٦ (١) ، مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ .

السائد فى أيام رابعة ، قبل أن يتطور تفسير القرآن نحو التفسير بالباطن مما كان وليد حركة الصوفية فى القرون التالية . فلا تثريب على رابعة إن كانت إذن قد فهمت الآية على هذا النحو ، بل هذا هو وحده الذى كان ينتظر منها فى مثل ذلك العصر . على أن إيجاز العبارة لايدلنا — مرة أخرى — على ما قصدت إليه من هذا النقد : أهو نقدٌ لتفسير المفسرين ، وإذن فالعبارة قيلت فى معرض التهكم عليهم ، أم هو نقد القرآن نفسه ؟ على أن هـذا الفرض الثانى هو الأقرب احتمالا ، كما يقتضيه سياق العبارة : إذ قالت هذه المقالة حينما سمعت قارئاً يقرأ الآية ؛ فهى لم تكن إذن بإزاء مفسر ، بل قارىء عادى .

— ١١ —

تطورت الحياة الروحية عند رابعة إذن إلى الذروة من التجريد والتسامى عن كل ماهو حسىٍّ . وواكب هذا استغراقُها الكامل فى الله ، بحيث أقفلت أبواب الحواس . وإلى هـذا ينتسب ماورد لنا من أقوال تنبىء عما آلت إليه حالها من إماتة الحواس ، بحيث يمكن أن يقال إنها ماتت من الدنيا . فقد « ذكر أن رابعة العدوية كانت فى الصلاة ، فسجدت على البوارى ، فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة[1] » ، أى إلى أن انصرفت من الصلاة .

فالحال التى تعبر عنها هذه القصة هى حال الفناء عن الوجود الخارجى ، وذلك بالفناء فى الوجود الباطن ، وجود الحق ، بحيث تستهلك فيه ، فيغيب عنها الوعى وتؤول إلى حال من اللاشـــعور الـكامل ، فيسقط عنها التمييز . وهى الحال التى

(١) فى المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان عربى ، ورقة ٧٧ ب ضمن رسالة تسمى كتاب الصلاة مجهولة المؤلف . وقد ذكر هذه الحكاية أيضا العطار ، فى « تذكرة الأولياء » ، جـ ١ ص ٦٤ .

يشير إليها الصوفية بالرمز بحكاية صواحبات يوسف عليه السلام اللواتى قطعن أيديهن « لفناء أوصافهن ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم مادخل عليهن من قطع أيديهن[١] » ؛ فيرمز بهذه الحكاية عند الصوفية إلى مايجب أن يكون عليه الصوفى فى حال فنائه عن دنيا الحواس. وهذا الرمز نفسه ينسب إلى رابعة القول به ، ولعلها أن تكون أول من قال به . فقد روى العطار قال : يحكى أن مالكا بن دينار والحسن البصرى وشقيقاً البلخى غدوا لزيارة رابعة . فسألتهم عن معنى الصدق ، فقال الحسن : « ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه » — فقالت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخى : « ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » — فقالت : هناك ماهو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : «ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه » — فصاحت رابعة : بل ثمت أفضل من هذا كله . فقالوا لها : تكلمى أنت إذن ! فقالت : « ليس بصادق فى دعواه من لم يَنْسَ الضرب فى مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . وقد تكون هذه الرواية صحيحة إذا استبعدنا اسم الحسن البصرى وأبدلنا به اسماً آخر ، وقد تكون موضوعة كلها على نَسَق مايقتضيه النموذج الذى أصبح لدى مؤرخى الصوفية المجدين للتصوف عن الصوفى . إذ أن هذه الحال — حال الفناء عن الآلام — قد صارت منذ القرن الثالث من المناقب الرئيسية للصوفى الحق . فالسَّرى السقطى (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ — سنة ٨٧٠ م) يقول عن الصوفى إنه لو ضُرِبَ وجهه بالسيف وهو فى حال الفناء لما أحسّ بألمه[٢] . كذلك يحدثنا الهجويرى أنه يحكى عن أبى الخير الأقطع أنه

(١) الكلاباذى : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٩٥ ، نشرة آربرى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(٢) السراج : «اللمع» ، ص١٩٢ ب فى المخطوط ؛ راجع لنشرة نيكلسون ، سنة ١٩١٤ بلندن

أصاب قدمه جرح مالبث أن فسد حتى أشار الطبيب ببتر قدمة ، غير أن أبا الخير لم يشأ ذلك . هنالك قال تلاميذه للطبيب : لو بترتها إبان صلاته لما أحس شيئاً ، لأنه فى الصلاة يغيب عن حواسه . ففعل وفق ماقالوا . فلما فرغ أبو الخير من صلاته شاهد قدمه وقد بترت [1] . وهكذا تكون صورة الصوفى الغارق فى الفناء وفقاً لهذه الأمور . فمن الممكن أن تكون هذه الرواية التى ذكرها العطار ، وكذلك مسألة دخول القصبة فى عينها إبان الصلاة وهى مما رواه العطار أيضاً ، نقول من الممكن أن يكون هذا كله من الأخبار التى اخترعت إتماماً للصورة وفقاً للنموذج الذى كان قد تكوّن عن الصوفى . و إذا كانت هـذه الرواية الأخيرة — دخول القصبة فى عينها — مما ورد فى الكتب العربية ، فإن الرسالة التى وردت فيها مجهولة المؤلف ، بحيث لانستطيع أن نقرر ما إذا كان قد أخذها هو الآخر عن العطار ، ذلك الرجل الجامح الخيال فى غير ما احتفال للوقائع التاريخية .

لهذا يجب أن نخلى هامشاً عريضاً لما فى هذه الروايات من المبالغة ، وأن نفهم منها مجرد الارتفاع فوق الآلام ، و إن كانت رابعة قد ظلت حتى موتها شعلةً زيتها الألم . فالواقع أنها بقيت تتلقى حتى آخر نفس من أنفاسها دروسها فى علم التأله فى مدرسة الآلام . كيف لا ، والألم هو دائماً قوت الأرواح الهائمة فى الطريق إلى الله ؛ ولن يفرغ المرء من هذا الطريق أبداً ؛ لهذا فلا بدله أن يستمر فى معاناة الآلام أبداً . ولا شك فى أنه كان لرابعة فضل كبير فى تمجيد الألم ، والدعوة إلى ما يمكن أن يسمى باسم عبادة الألم مما ولّد فى الحياة الروحية فى الإسلام وتراً جديداً سيعزف عليه الصوفية من بعد — وعلى رأسهم الحلاج خاصة — أعمق ألحان الألم ، فيُثرِى مضمونهم الباطن إلى درجة عالية . ورابعة ترى فى الألم نعمة يمنحها الله لعباده المخلصين ، وليس لها أن تسأل الله تخفيف آلامها ، لأن إرادة الله هى

(١) الهجويرى : « كشف المحجوب » ، ص ٣٠٤ ترجمة نيكلسون .

هذا الامتحان بالآلام ، فكيف تتوجه بالدعاء إليه متجاهلة تلك الإرادة ؟ ! فهكذا كان جوابها لسفيان الثورى لما أن سألها أن تدعو الله حتى يخفف آلامها[1] . وهذا من بين الدواعى العديدة التى دعتها إلى رفض كل ما كان يعرض عليها من مال ، وهى كانت على ما هى فيه من شظف عيش وإملاق : ذلك أنها تريد من هذا أن تقتات بألم الحرمان ، وناهيك به من قوت ، حَسْب الأولياء أن يظفروا به ! وفى هذه الدعوة إلى الألم نجد عنصراً ممتازاً أدخلته رابعة العدوية فى الروحية الإسلامية .

— ١٢ —

وتابعت رابعة حملتها على الأخرويات بالصورة الحسية المفهومة عند سائر الناس ، وغزا هذا كلَّه نموُّ معنى المحبة والرحمة بحيث تشمل الناس أجمعين. فلم يعد يعنيها خلاصها وحدها بقدر ما يعنيها خلاص الآخرين معها . ولنا فى هذا الباب قصة رواها الأفلاكى فى « مناقب العارفين » (بالفارسية) هاك ترجمتها : «ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفى إحدى يديها نار ، وفى الأخرى ماء وهى تعدو مُسْرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبتغين؟ فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء كى ألقى بالنار فى الجنة وأصبّ الماء على الجحيم ، فلا تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير خوف ، ويعبدونه على هذا النحو : (بلا مطمع فى جزاء أو خوف من عقاب) — ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء فى الجنة وخوف من الجحيم ، أفكانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟ »[2] .

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، جـ ١ ، ص ٦٩ و ٧٠ ، نشرة نيكلسون .

(٢) الأفلاكى : « مناقب العارفين » ، مخطوط باريس ، قسم فارسى قديم ، رقم ١١٤ ورقة ١١٤ ا .

فى هذه الحكاية — التى لا نعلم مبلغها من الصحة ، والتى فيها ما فيها من التزويق بحيث تذكرنا بقصة مصباح ذيوجانس ، أتراها صيغت على غرارها ؟ — نقول إن فى هذه الحكاية ما يدل على أن رابعة قد أرادت أن تخلص الناس نهائياً من فكرة الجنة والنار ، لأنها رأت فيها مصدراً لإفساد المعنى الحقيقى للعبادة . إذ العبادة الحقة هى تلك التى تقام لوجه الله غير طالبة جزاءاً ولا شكوراً ؛ هى تلك التى لا تكون على حرف ، ولا بسبب خوف ، ولا يدخل فيها أى معنى من معانى الترغيب أو الترهيب .

وهى فى سبيل هذه الدعوة قد بدأت بنفسها ؛ فهى غير راغبة فى الجنة ولا وجلة من النار . ذكر العطار أن رابعة كانت تقول : « إلٰهى ! إن كنتُ عبدتك خوف النار فأحرقنى بالنار ، أو طمعاً فى الجنة فحرّمها علىّ . وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقالت أيضاً وهى لهيفة القلب : « إلٰهى ! إن ألقيت بى يوم الحساب فى النار لأذعت سراً يبعد النار عنى بألف سنة » . وكانت تقول : « إلٰهى ! كلّ ما قدرته لى من خير فى هذه الدنيا أَعْطِه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك »[1] . وكل هذه الأقوال تدلنا بوضوح على أن معنى الجنة والنار قد رق عند رابعة بحيث كاد أن يزول ، لأنه لا يتفق مع العبادة الصحيحة ؛ وقولها الثالث الأخير يدل على إمعانها فى تجريد المعنى الحسّى للأخرويات بالنسبة إلى نفسها .

ثم لما طهّرت نفسها من هذا المعنى راحت تدعو الناس إلى هذا التطهُّر ، بحيث تصبح العبادة لله وحده من غير طمع فى شىء أو خوف من شىء . وهذه الحركة الرمزية التى تعبر عنها القصة التى ذكرها الأفلاكى إنما قصد بها إلى إيضاح معنى دعوتها بطريقة عينية بارزة . إذ رأت أن الناس إنما يعبدون الله رجاء دخول الجنة

---

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، جـ ١ ص ٧٢ و ٧٣ .

أو مخافة النار ، فهل معنى هذا أنه إذا لم يكن ثمت جنة ولا نار لن يعبدوا الله ؟ هذا سؤال ألقت به رابعة على جماعة من الصالحين ذكروا لها أنهم يعبدون الله خوف النار وطمعاً فى الجنة . وهنالك سألوها : « وأنتِ ، لماذا تعبدين الله ؟ — فأجابت : إنما أعبده لذاته . أفلا يكفينى نعمة منه أنه يأمرنى بعبادته ؟ »(١) إنها ترى إذن فى مجرد أمر الله بعبادته نعمة سابغة كافية بحيث لا يرجو المرء بعدها أمراً .

على أن المقصود الأبعد فى ذهن رابعة هو أن تسمو بالحياة الدينية فى الإسلام بأن تزيل ما فى القرآن من معان حسّية وتحيلها إلى معان روحية خالصة ، فلها الفضل الأكبر فى بدء هذه الحركة التى ستبلغ أوجها عند أبى يزيد البسطامى(٢) . ومن هنا يظهر دورها البارز فى الحياة الروحية فى الإسلام عامة .

— ١٣ —

وقد نسب المؤرخون إلى رابعة جملة من الكرامات . وقد رأينا كيف حاول العطار منذ البداية أن يحيط رابعة بالكرامات منذ ميلادها ؛ وهو كذلك قد حَرَص على أن يملأ ترجمته الخيالية لرابعة بألوان من الكرامات لا حصر لها : فحمارها ينفق فى الصحراء وهى بسبيل الحج ، فتدعو الله ، فينهض الحمار مليئاً بالحياة . وهى تعلم الغيب كما يظهر من القصة التى رواها عن أرغفة الخبز التى أرسلت بها إليها سيدة مع خادمتها . واللصوص لا يستطيعون السرقة منها ، وكأن الله يحرس كل مالها ، وإن لها معهم لقصصاً عديدة ، ذكر بعضها العطار ، وذكر غيرها آخرون مثل تلك التى وردت فى المخطوط رقم ١٢٤٢ (عربى الفاتيكان) ورقة ٨٣ ا من أن لصاً دخل بيتها فلم يجد غير إبريق فلما هَمّ بالخروج قالت له

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ص ٦٩ .

(٢) راجع بحثنا بعنوان : « شطحات الصوفية » ففيه تفصيل القول فى مذهب أبى يزيد البسطامى فى هذه الناحية : حـ ١ ص ٢٤ — ص ٢٥ . القاهرة سنة ١٩٤٩ .

رابعة : ياهذا ! إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شيء . فقال : إنى لم أجد شيئاً . فقالت : يامسكين ! توضأ بهذا الإبريق وادخل فى هذا المخدع ، وصل ركعتين، فإنك ماتخرج إلا بشيء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدى ومولاى ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى؛ وقد أوقفته ببابك ، فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

« فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذَّت له العبادة ، فما برح يصلى إلى آخر الليل . فلما كان وقت السَّحَر ، دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول فى سجوده معاتباً نفسه ـ شعراً ـ :

إذا ماقال لى ربى : أما استحييت تعصينى ؟
وتخفى الذنب من خَلْقى وبالعصيان تأتينى ؟
فما قولى له لمّا يعاتبنى ويُقصينى ؟ !

«فقالت له : حبيبى ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ! وقفت بين يدى مولاى بذلىّ وافتقارى ، فقبل عذرى وجبَر كسرى ، وغفر لى الذنوب ، وَ بَلَّغَنِي المطلوب .

«ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كفها إلى السماء ، وقالت : سيدى ومولاى ! هذا وقف ببابك ساعة فقبلته ؛ وأنا مذ عرفتك بين يديك . أَتُرَاكَ قبلتنى ؟ فنوديت فى سرّها : يارابعة ! من أجلك قبلناه ، و بسببك قرّبناه[1] » .

وفى هذه الحكاية نرى الأسطورة الشعبية تصوّر رابعة صاحبة كرامات مع اللصوص بحيث تهديهم إلى الإيمان ،كما تصور درجتها عندالله فى الشفاعة والقُرب . وهى من نوع ما نراه كثيراً فى ترجمات الأولياء والقديسين الخيالية ، كما هى الحال عند القديس فرنشسكو الأسيزى مثلا .

(١) مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات برقم ٢ ١٢٤ فاتيكان عربى ورقة ١٨٣ .

و إن الشبه لقريب كل القرب فى هذا الباب بين القديس فرنشسكو الأسيزى و بين صاحبتنا رابعة. فالحيوان والطير يألفها، بحيث كانت الغزلان — وهى النّفور من الإنسان — تقبل عليها وتتحلق حولها وتتمسح فيها. والعطار يروى لنا هذه القصة، وهى أن « رابعة صعدت جبلا، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان، و بقيت حواليها آمنة كل الأمان. وفجأة أقبل الحسن البصرى فنفرت الغزلان، فقال لها: يا رابعة! لماذا فرت كل الغزلان منى ولم تفرّ منك أنتِ؟ فسألته: ماذا أكلت اليوم يا حسن؟ فأجاب: أكلت طعاماً طهى بالزيت. فقالت له رابعة: يا من تأكل من دهنها، كيف لا تريد منها أن تفر منك؟ »[1] ومنها ترى السبب فى تآلف الحيوان لرابعة وهو أنها كانت لا تأكل من لحمه أو ما يخرج منه. ولولا أن هذه القصة أسطورة كلها، لاستخلصنا منها ما يتصل بحياة رابعة من الزهد بحيث حرمت على نفسها أكل الحيوان وما يخرج منه. وعلى كل حال، فالمهم فى هذا أن العطار لم يذكر صلاتها بالحيوان دون أن يبرر عقلياً السر فى هذه الألفة فيما بينها و بينه، والتفسير لا يخلو من البراعة ولا نجد مثله فى ترجمات القديس فرنشيسكو الأسيزى.

وأكثر الكرامات التى يرويها العطار لرابعة قد جرت مع الحسن البصرى، مما يؤكد جانب الخيال والاختراع إلى أبعد حد فيها. فهو يذكر كذلك أن الحسن و بعض أصحابه ذهبوا إلى رابعة وكان الوقت ليلا فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا؛ فوضعت رابعة طرف أصابعها فى فمها ثم أخرجتها فظلّ يشع منها حتى مطلع الفجر نورٌ كأنه نور مصباح. والعطار يفسر هذا أيضاً فيقول: « إن سأل أحد كيف حدثت هذه الكرامة، فأخبره أن النور كان يشعُّ من يد موسى. فإن قيل لك إن موسى عليه السلام كان نبياً وأن رابعة لم تكن نبية، فأجبه قائلا:

(١) « تذكرة الأولياء »، جـ ١، ص ٦٥، نشرة نيكلسون.

إن من ينفذ الأوامر التى أتى بها الأنبياء يشارك فى قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛ وكما أن للأنبياء معجزات ، فإن للأولياء كرامات »[١] . وهو يذكر قصة أخرى مع الحسن وهى أنه ذهب إليها وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم، فلما بدآ الحديث عن معرفة الله ، رأت أن هذا الحديث أفضل من الطهى ، فتركت القدر دون أن تنفخ تحته النار . فلما فرغا من صلاة العشاء « أفرغت ما فى القدر فوجد أن اللحم الذى كان فيه قد طُهى بقدرة الله . فأكلنا (الحسن وهى) من هذا الطعام ، وكان له طعم لم نتذوق مثله قط من قبل »[٢] . ثم هما يقومان بالمعجزات أو الكرامات معاً : فهو يلقى على الماء سجادته ويصلى عليها ، وهى تلقى سجادتها فى الهواء وتصعد عليها . على أن القصة تنتهى بعبرة عالية ؛ فالحسن لا يستطيع أن ينافسها فى هذه الكرامة لأنه لا يستطيع الطيران فى الهواء ، فابتأس ، فعزّته رابعة قائلة: « ما فعلتَه يستطيع السمك أن يفعله ، وما فعلتُ أنا يستطيع الذباب أن يفعله . وإنما المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما »[٣] . وفى هذا القول إشارة إلى أن المهم عند الصوفى ليس هو الإتيان بالكرامات ، بل الترقى فى معراج الحياة الروحية ؛ وقيمة الصوفى ليست فى عدد كراماته ونوعها ، بل فى السلوك إلى الله بحيث يرضى عنه ويحظى بالقبول منه .

وكل هذه الكرامات هى من الأنواع المشهورة المألوفة فى الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين ، والعملية التى أنتجتها عملية واحدة .

ولم نسقها هاهنا إيماناً منا بأن هذه الكرامات قد وقعت ، فهيهات هيهات أن يخطر هـــذا ببالنا ! إذ نحن ننكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها . إنما هى تقدم لنا الأسطورة الشعبية التى حيكت حول الشخصية التى تنسب إليها

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، جـ ١ ، ص ٦٥ ، نشرة نيكلسون .
(٢) المرجع نفسه ، جـ ١ ص ٧٢ .
(٣) المرجع نفسه ، جـ ١ ص ٦٥ .

هذه الكرامات أو تلك الخوارق . وقيمتها إذن ليست فى صدقها من حيث الواقع والتاريخ ، فإنها جميعاً خلو من هـذا الصدق ، وإنما فى بيان تطور الصورة التى يتصورها الضمير الشعبى أو الأسطورى لأولئك النفر من الناس .

ونحن نرى فيما يتصل برابعة أن هذه الأسطورة لم تنشأ إبان حياتها ، وإنما نشأت متأخرة بعد هذا بقرنين على أقل تقدير . ونشأت أول مانشأت مرتبطة بأسطورة الحسن البصرى التى كانت قد بدأت تتكون قبل ذلك بعهد غير طويل. واشتبكت الأسطورتان معاً فى أمثال هذه الحكايات التى أورد أغلبها فريد الدين العطار وهو أكثر المؤرخين الصوفية حرصاً على تصيد النوادر والخوارق والغرائب. ولا تحسبنا مبالغين إذا قلنا إنه كان للعطار نفسه نصيب ما فى تكوين هـذه الأسطورة باختراع البعض من هذه الحكايات المتصلة بالكرامات ، أو فى القليل مما زيف البعض مما كان متناقلا بين الناس ، ووشّى من الأحاديث ماشاء له خياله البعيد الغور . والذى يحملنا على عدم تحميله نصيباً أكبر فى الاختراع أن المخطوطات العربية تكشف لنا شيئاً فشيئاً عن الأصول العربية للكثير مما يأتى به من حكايات كنا لا نجدها فى غيره من المصـادر العربية فيخيل إلينا أنه الذى ابتدعها . لهذا يجب ألا نحكم عليه فى هذا الباب إلا بكثير من الحيطة والأناة .

— ١٤ —

وهذه الأسطورة لاتزال ترن أصداؤها فى الخيال الشعبى بكل قوتها ، وذلك فى العبادة التى تقام حول قبرها .

وهـذا يقودنا إلى الحديث عن قبرها ، هـذا المختلَفِ فى مظِنة وجوده أشد الاختلاف .

فقوم قالوا إن قبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا، وهو قرية

الطور إلى شرقى القدس . فأبو محمود بن إبراهيم بن سرور المقدسى (المتوفى سنة ٧٦٥ هـ) يقول فى كتابه « مثير الغرام » : « قدِمَتْ (أى رابعة) بيت المقدس وما به ؛ وقبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا . وهو ظاهر يزار . وكانت وفاة رابعة سنة خمس وثلاثين ومائة »[1] . وعنه أخذ شمس الدين السيوطى (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ) فى كتابه : «إتحاف الأخِصَّا فى فضائل المسجد الأقصى»[2] .

ويزيدنا مجير الدين الحنبلى تفصيلا فيقول فى كتابه : « الأنس الجليل »[3] وهو يذكر الأعيان والزهاد الذين دخلوا بيت المقـدس ، وهو قد ألف كتابه سنة ٩٠١هـ واعتمد فيه على «مثير الغرام» : «إن قبر رابعة بنت اسماعيل أم الخير العدوية البصرية على رأس جبل طور زيتا شرقى بيت المقدس بجوار مصعد عيسى عليه السلام ، من جهة القبلة ؛ وهو فى زاوية ينزل إليها من درج . وهو مكان مأنوس يقصد للزيارة » .

كذلك نرى ابن خلـكان فى « وفيات الأعيان » يقول : « وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور »[4] وفى إثره ابن شاكر الكتبي يقول : « وكانت وفاتها على قول ابن الجوزى فى هذه السنة (أى سنة ١٣٥ هـ) . وقال غيره سنة خمسة وثمانين (أى ومائة) . وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار ؛ رضى الله عنها »[5] .

وفريق ثان ترجّح بين التأييد والإنـكار فيما يتصل بكون هذا قبر رابعة

---

(١) ابراهيم بن سرور المقدسى : « مثير الغرام » ، ص ٤٩ . طبع القدس سنة ١٩٤٦ .

(٢) مخطوط فى المـكتبة الخالدية بالقدس . وقد تفضل الأستاذ أحمد سامح الخالدى بهـذه البيانات فله منا أجزل الشكر .

(٣) جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

(٤) جـ ١ ، ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م .

(٥) صلاح الدين محمد بن شاكر الـكتبي : « عيون التواريخ » ، ورقة ٧ ب - ٨ ١ ، مخطوط رقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق - أخبار سنة ١٣٥ هـ .

العدوية صاحبتنا . ومنه ابن العماد فى « شذرات الذهب » ، إذ قال : « وقبرها (أى رابعة) على رأس جبل يسمى الطور بظاهر بيت المقدس . وقيل ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية »[(١)] . وكذلك عبد الرؤوف المناوى قال فى ترجمته لرابعة بنت اسماعيل العدوية زوج أحمد بن أبى الحَوارَى : « ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتا ببيت المقدس . وقيل المدفونة هناك إنما هى الأولى (أى رابعة العدوية البصرية) »[(٢)] . ومن الواضح أن المناوى نقل هذا الخبر عن مؤرخ تحدث عن رابعة العدوية البصرية ، ونسبه إلى رابعة الشامية ، والدليل هو أنه جعل وفاة رابعة الشامية سنة خمس وثلاثين ومائة مع أنه يقول إنها زوج أحمد بن أبى الحوارى ، وهذا توفى سنة ٢٣٠ هـ فكيف تكون زوجه إذن إذا كانت ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة !! فالخلط إذن فى رواية المناوى هنا ظاهر فاضح .

وفريق ثالث أنكر أن يكون ذلك قبر رابعة العدوية . فابن بطوطة فى رحلته يقول عن القدس ومزاراته : « ومنها قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية ، وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة »[(٣)] . وكذلك الهروى فى كتاب « الزيارات »[(٤)] قال عن هذا القبر الموجود بظاهر بيت المقدس إن القبر لرابعة البدوية ، وهى امرأة أحمد بن أبى الحَوارَى .

وإذا اتخذنا الصمت حجة وجدنا الواسطى الذى ألف كتابه « فضائل البيت المقدس » سنة ٤١٠ هـ لا يذكر أن قبر رابعة بطور زيتا .

على أن الذى فصل فى المسألة بصورة قاطعة هو ياقوت فى « معجم البلدان » تحت لفظ « المقدس » فقال ، وهو يتحدث عن ابن طاهر بن على بن أحمد الحافظ المعروف بابن القيسرانى : « ومات ابن طاهر ودفن عند القبر الذى على جبلها

(١) جـ ١ ، ص ١٩٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ = سنة ١٩٣١ م .
(٢) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية بدمشق ، ورقة ١٠٦ ب ــ ١٠٧ .
(٣) جـ ١ ، ص ١٢٤ ، س ٣ .   (٤) ص ٤٠٠ .

(جبل القدس) ، يقال له قبر رابعة العدوية ، وليس هو بقبرها ، إنما قبرها بالبصرة. وأما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبى الحَوَارِىّ الـكاتب ، وقد اشتبه على الناس »[1] . وهذا أوضح بيان لهذه المشكلة ، وفيه القول الفصل .

ذلك أننا لا نعلم أن رابعة العدوية قد رحلت إلى الشام حتى تموت هناك . فكيف يوجد قبرها إذن فى ظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا ؟ !

وإذن فالقبر الموجود بظاهر القدس على رأس طور زيتا إنما هو قبر رابعة الشامية سميّتها المشهورة ، أى رابعة زوج أحمد بن أبى الحوارى كما بينا من قبل . واختلط الأمر على الناس هذه المرة كما اختلط عليهم فى أكثر المواضع بين هاتين الصوفيتين . وشهرة رابعة العدوية البصرية قد أنست النـاس رابعة الشامية فنسبوا القبر الخاص بهذه إلى الأولى .

على أن ثمت مسألة أخرى هى مسألة قبر ينسب إلى رابعة العدوية فى دمشق. وقد زرته فى ١٩٤٧/١٢/١٧ فوجدته بداخل بيت تحتـله الآن شعبة الإخوان المسلمين فى منطقته . وقد كشفنا عن القبر فلم نجد عليه شاهداً ما . ويسكن إلى جواره شيخ جاوز الثمانين هو الشيخ عبد القادر القضمانى وقد سألته عما يعرف من أحوال هذا القبر فأجاب بأنه يقيم إلى جواره منذ أكثر من خمسين سنة ، وأنه قاوم كل إغراء له بمغادرة هذا المـكان لسكنى الحى الجديد ، حى المهاجرين ، لأنه عرف من كرامات صاحبة القبر ما جعله يتبرك به . وهو يؤكد (« رأينا هـــذا بأعيننا ، ولمسناه بأيدينا » — هكذا بدأ حديثه بلهجة ملؤها الإيمان والسذاجة) أن لهذا القبر فوائد مجربة : من بينها أنه لم تحدث قط سرقة فى هذا الشارع ، طوال الخمسـين سنة التى أقام فيها إلى جوار هذا القبر ؛ وأنه لم يصب منه بيت بالقنابل التى انهالت على هـذا الحى من دمشق إبان ثورة سنة ١٩٢٥

(١) ياقوت « معجم البلدان » ، تحت لفظ « المقدس » ، ج ٤ ، ص ٦٠١ ، نشرة فشتنفلد.

على الرغم من أن بيوت الشوارع المجاورة قد أصيبت كلها من قنابل الفرنسيين هذه ؛ وأن الذى يزور القبر ليلة السبت مرتين متواليتين تقضى الحاجة التى من أجلها قام بهذه الزيارة . ولا يزال كثير من النسوة والشيوخ يمرون بالقبر فيتلبثون قليلا وينظرون من نافذته ذات القضبان المربعة ، يقرأون الفاتحة على روح صاحبته ويطلبون البركة . وبالجملة ، فهو لا يزال عامراً بالحاجين إليه للتبرك ؛ ولا تزال ذكرى رابعة العدوية حيّة فى نفوس أهل دمشق والشام عامة .

والقبر عبارة عن مستطيل من البناء المصنوع من الحجر يبلغ طوله قرابة مترين فى عرض نيف ومتراً ويقع على أرض تعلو بعض العلو عن أرض الغرفة الواسعة التى تحتلها الشعبة ؛ وهو فى غرفة خاصة على يمين الداخل . ومن فوق القبر قبو خشبى نصفه السفلىّ مستطيل ونصفه العلوى هرمى ، وقد كسى بالمخمل . والدار الموجود بها الشعبة والقبر يلوح أنها ليست قديمة ، إذ هى مكونة من بعض الأحجار القديمة فى أصلها السفلى ، وفوق الباب كتابة تشير إلى منشىء الدار ، ولكن دون ذكر التاريخ .

ترى لمن يكون هذا القبر ؟ ولماذا نسب إلى رابعة العدوية ؟

مسألة لا يمكن القطع فيها ؛ وكل ما يمكن افتراضه هو أن يكون قد عُمل لرابعة الشامية — وأصلها من دمشق — قبر فى هذا المكان ؛ وعلى توالى الزمان نسى اسمها الحقيقى ، واستبدل به اسم رابعة المشهورة ، رابعة العدوية كما حدث بالنسبة إلى القبر الموجود بطور زيتا بظاهر القدس . أما كيف نفسر وجود هذين القبرين لشخص واحد ، فيمكن أن يقال إن رابعة الشامية قد توفيت بالقدس فدفنت هناك ؛ ولكن لما كان بلدها الأصلى الذى حيت فيه طوال عمرها هو دمشق ، فقد أقيم لها قبر رمزى فى دمشق كذلك ، لعله هو الموجود اليوم . على أن هذا فرض فحسب ، وإن كان ثمت شواهد على وجود قبرين وأكثر لشخص

واحد . فنى دمياط قبر لشيخ يدعى إبراهيم الشرباصى ، وفى بلدنا ، شرباص ، (على نهر النيل على مسافة ١٧ كيلو متراً جنوبىّ دمياط) قبر للشيخ نفسه ؛ وأهل بلدنا يعتقدون أن القبر الحقيقى هو الموجود فى شرباص ، أما القبر الموجود فى دمياط فلا يحوى غير يده التى قطعت وهو يحارب الصليبيين فى حملة لويس التاسع. وإذن فظاهرة وجود قبرين فى مكانين مختلفين لشخص واحدٍ من الظواهر المشاهدة كثيراً بالنسبة إلى الأولياء المسلمين .

وهناك خبر أورده العطار لو كان قد دقق فيه لكفانا مؤونة الكثير من هذا البحث . ذلك أنه يقول إن محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى زارا قبر رابعة فقالا : « يا رابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحنى رأسك للدنيا ولا للآخرة ، فأين أنت الآن ؟ » فصاح صوت من قبرها يقول : « طوبى لى ! ما فعلتُه هو ما كان علىّ أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفتُه هو السبيل السوىّ »[1]. ومحمد ابن أسلم الطوسى ، الصوفى المشهور ، والمُحَدِّث الذى روى أحاديثه أبو نعيم فى « الحلية »[2] ، قد توفى سنة ست وعشرين ومائتين . وليس لدينا ويا للأسف من التفاصيل عن حياته ما يسمح بمعرفة رحلاته ، على أن زيارته للبصرة أرجح من زيارته للقدس لقرب الأولى وبعد الثانية . وعلى كل حال فالخبر ليس بذى قيمة كبيرة ، لأنه يقوم على أخبار بعيدة عن المعقول وذلك فى ذكره أن صوتاً صاح من القبر يرد عليهما ! !

والخلاصة أن رابعة قد توفيت فى البصرة ، وأنه لا بد أن يكون لها قبر هناك هو الذى زاره أو أمكن أن يزوره محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى — إن صح الخبر الذى أورده العطار فى جملته ، لا فى تفصيله طبعاً ! — وأمل القبر تهدّم فى

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٧٣ ، نشرة نيكلسون .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ، ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٥٣ ، طبع مصر سنة ١٩٣٨ ؛ وراجع عنه أيضاً « طبقات الشعرانى » ، ج ١ ، ص ٨٣ .

أحد التخريبات التى أصابت البصرة فدمرتها عن آخرها أو كادت .

— ١٥ —

بقى علينا أن نعرض لمسألة تاريخ وفاة رابعـــة . وهنا نرى الأمر يختلط مرة أخرى .

فهناك رواية يلوح أن ابن الجوزى صاحبها تقول إن وفاتها كانت فى سنة خمس وثلاثين ومائة (=٧٥٢م) . فقد ذكر ابن خلكان(١) أن ابن الجوزى ذكر هذا التاريخ فى كتابه « شذور العقود » . على أن ابن الجوزى فى « صفة الصفوة » لم يذكر لها تاريخ وفاة . وممن ذكر هذا التاريخ ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة »(٢) ، والمرتضى الزبيدى فى « إتحاف السادة »(٣) ، وابن شاكر الكتبى فى « عيون التواريخ »(٤) ، وابن العماد فى « الشذرات »(٥) .

ورواية ثانية تقول إن تاريخ وفاتها سنة ثمانين ومائة ، وصاحبها الذهبى . قال ابن تغرى بردى فى كلامه عن سنة ثمانين ومائة : « الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة : قال : وفيها توفى ... ورابعة العدوية . قلتُ : وقد تقدمت وفاتها فى قول غير الذهبى »(٦) . ومن الذين تابعوا الذهبى على هـذا التاريخ عبد الرؤوف المناوى فى « طبقات الصوفية »(٧) فقال : « ماتت سـنة ثمانين ومائة ؛ وقيل غير ذلك » .

---

(١) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ فى كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) المرتضى الزبيدى : « اتحاف السادة » ، ج ٩ ، ص ٥٧٦ و ٦٨١ .

(٤) ج ٣ ورقة ٧ ب عن سنة ١٣٥ ، ويذكر أن هذا قول ابن الجوزى ، مخطوط الظاهرية برقم ٤٤ تاريخ .

(٥) ابن العماد : « شذرات الذهب » ، ج ١ ص ١٩٣ عن سنة ١٣٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : « النجوم الزاهرة » ، نشرة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ ج٢ ص ١٠٠ س ٢٣ — ٢٤ .

(٧) مخطوط الظاهرية برقم ٤١٦٤ ورقة ١٠٦ ا .

ورواية ثالثة تقول إنها توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ؛ ذكر ذلك ابن خلكان[١] وابن شاكر الكتبي[٢].

فأي هذه الروايات الثلاث نختار ؟

يرى الأستاذ ماسينيون أن الرواية الثالثة هي أصح الروايات (وكذلك يمكن الأخذ بالثانية) ، وأن جعل تاريخ وفاتها سنة ١٣٥ إنما قصد به إلى جعلها تلميذة الحسن البصري (ولد سنة ٢١ هـ = ٦٤٢ م ، وتوفي في غرة رجب سنة ١١٠ هـ = ١٠ أكتوبر سنة ٧٢٨ م) . ونضيف إلى هذا أنه قد قصد بذكر هذا التاريخ المتقدم تبرير الحكايات التي رويت بينهما : فكيف كان يمكن التقاؤهما لو كانت رابعة توفيت سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ بينما هو توفي سنة ١١٠ هـ ؟ خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الروايات تتحدث عن مكانة رابعة ورسوخ قدمها في الطريق إلى درجة أعلى من الحسن ، كما شاهدنا في روايات العطار .

والأستاذ ماسينيون يبرهن على اختياره لتاريخ سنة ١٨٥ بدلا من ١٣٥ بالبراهين التالية : أولا صداقتها المشهورة لأبي المهاجر رياح بن عمرو القيسي ، وهو قد توفي حوالي سنة ١٨٠ ، بل حوالي ١٩٥ هـ[٣] (= سنة ٨١٠ م) ؛ فلو كانت رابعة توفيت سنة ١٣٥ هـ لما صح اجتماعها برياح بن عمرو القيسي . وثانياً إلتقاؤها بسفيان الثوري الذي أتى البصرة بعد سنة ١٥٥ هـ . وثالثاً حكاية خطبة الوالي العباسي للبصرة ، محمد بن سليمان الهاشمي ، لها ، وهو قد كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ

---

(١) ابن خلكان : «وفيات الأعيان» جـ ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) جـ ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) ذكر ماسينيون التاريخ التالي: حوالي ١٨٠ هـ في «بحث في أصول المصطلح» [ص ١٩٣ تعليق ٣ ، ص ١٩٥] ولكنه عدل عنه في كتابه « مجموعة نصوص غير منشورة » [باريس سنة ١٩٢٩ ، ص ٦] فذكر التاريخ الآخر وهو : حوالي سنة ١٩٥ .

وتوفى سنة ١٧٢ هـ[1] ونضيف نحن إلى هذا أيضاً صلتها الوثيقة بعبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ (= ٧٩٣ م).

وهذه الحجج حجج حاسمة، ولا شك فى أن التاريخ : ١٣٥ هـ إنما قصد به إلى تمكين لقائها بالحسن البصرى حتى يتم الإسنادُ وتصح الروايات التى تتحدث عن اجتماعاتهما. لكن موضع الصعوبة بعد هى فى الاختيار بين سنة ١٨٠ وسنة ١٨٥ لأن هذه الحجج إنما تتعلق باستبعاد سنة ١٣٥ هـ. بيد أننا لا نستطيع، بحسب ما لدينا من وثائق حتى الآن، أن نفصل بين هذين التاريخين.

وإذن فرابعة توفيت إما سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ (= سنة ٨٠١ م).

---

(١) راجع ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى »، ص ١٩٣ تعليق ٥ ؛ باريس سنة ١٩٢٢.

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

تصدير

هانحن أولاء نورد فيما يلي طائفة من الأخبار والأقوال التى خلّفها لنا المؤرخون والكتاب عن رابعة العدوية ، سعينا من ورائها إلى أن نضع بين أيدى الناس الآثار الباقية من هذه الصوفية ، لتكون بمثابة شواهد للتحليل الذى قمنا به ، وموادّ لغيرنا ممن يريدون استئناف البحث فى حياتها ونظرتها الروحية ، فنوفّر عليهم مؤونة مجهودات شاقة بذلناها فى التنقيب عن مخلّفاتها النادرة ، وعسى أن تكون فى هذا أسوة للعاملين فى ميدان الفكر العربى والإسلامى ، فيضم كل باحث ماعثر عليه من آثار نادرة عن الشخصية أو المذهب الذى هو بصدد البحث فيه ، ولعل لهذا فى بعض الأحيان من العائدة مايفوق عمل التحليل نفسه .

ولسنا نزعم فى شىء أننا أتينا على كل مابقى لدينا حتى اليوم من آثار رابعة . فهيهات ! فهيهات ! فالنصوص غير المنشورة لاتزال تعدنا بالكثير الذى قد يفوق كل ماحصلناه حتى اليوم بعديد المرات . والنصوص المنشورة لم نورد منها إلا كل ماوقع بين أيدينا ، برغم كل مابذلناه من جَهْدٍ فى هذا السبيل . وقد أغفلنا منها تلك التى لاتورد أشياء جديدة ، بل أخباراً تكاد تتكرر بعينها فى أكثر من نص مما أوردناه ، مثل ابن خلكان (ﺣ ١ ، طبع القاهرة سنة ١٢٧٥ ، ص ٢٥٦ — ص ٢٥٧) و « طبقات » الشعرانى (ﺣ ١ ، ص ٨٦ ، القاهرة سنة ١٢٩٩ ﻫ) ومحمد بن على الأسنوى (المتوفى سنة ٧٦٥ﻫ = ١٣٦٣م) مؤلف «حياة القلوب» (بهامش «قوت القلوب» ، لأبى طالب المكى ، القاهرة سنة ١٣١٠) ومثل كتب التاريخ العامة . كذلك لم نورد ماورد أكثر تفصيلا ودقة فى المصادر الأخرى التى نقلت عنها هذه الأخبار المتأخرة .

— ١ —

الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = سنة ٨٦٩ م) ، «البيان والتبيين» :

(ا) حـ ٣ ، ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ :

« الثورى عن حبيب بن أبى ثابت . . قال : وقيل لرابعة القيسية : هل عملت عملا قطُّ ترين أنهُ يقبل منك ؟ قالت : إن كان شىء ، نخوفى من أن يُرَدَّ علىَّ »

(ب) حـ٣ ، ص١٢٢ ، نشرة السندوبى : فى باب « نساك البصرة وزهادها » :

« عامر بن عبد قيس ، وبُجَالة بن عبدة العنبريان ؛ وعثمان بن أدهم ؛ والأسود ابن كلثوم ؛ وصِلَة بن أَشْيَم ؛ ومذعور بن الطفيل ؛ ومن بنى منقر : جعفر وحرب ابنا جِرْفاس . كان الحسن يقول : إنى لا أرى كالجعفرين جعفرا ، يعنى جعفر بن جرفاس وجعفر بن زيد العبدى .

ومن النساء : معاذة العدوية ، امرأة صلة بن أشيم ؛ ورابعة القيسية »

(حـ) الجاحظ : الحيوان ، حـ ١ ص ٧٨ ، طبع مصر سنة ١٩٠٧ :

«فإن تهيّأ مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ، ومعاذة العدوية ، ورابعة القيسية ، والشجا الخارجية» .

— ٢ —

السَّرَّاج (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ = سنة ٩٨٨ م) ، « اللمع » ، نشرة نيكلسون ، ص ٣٢٢ :

ذكرها فى « باب فى الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء » ، حيث أوردها من بين جملة أشخاص منهم محمد بن واسع وعبد الواحد بن زيد وأيوب السختيانى .

— ٣ —

الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م) : «التعرف لمذهب أهل التصوف» ، نشرة آربرى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ :

(ا) «قولهم فى الرضا» ، ص ٧٣ :

« ... قال سفيان (الثورى) عند رابعة : اللهم ارضَ عَنّى ! فقالت له : أما تستحيي أن تطلب رضا مَنْ لست عنه براضٍ ؟! »

(ب) «لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم» ، ص ١٢١ :

« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى ، فقالوا : ماحالك ؟ قالت : والله ماأعرف لعلّتى سببا : عُرِضتْ علىّ الجنةُ فملتُ بقلبى إليها ؛ فأحسِبُ أن مولاى غار علىّ ، فعاتبنى ، فله العُتْبَى[1] » .

— ٤ —

الهجويرى : « كشف المحجوب » ، (ترجمة نيكلسون الإنجليزية ، ليدن سنة ١٩١١ ، ص ٣٥٨) : « ولقد قرأت أن رجلا من أهل الدنيا قال لرابعة : سلينى حاجتك . فقالت : إنى لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لايملكها ؟ ! »[2]

— ٥ —

أبو سعيد بن أبى الخير فى «أسرار التوحيد» للمنور (المتوفى سنه ٦٠٠ هـ = سنة ١٢٠٣ م) ، بطرد غراد سنة ١٨٩٩ ، ص ٣٤٥ : قال أبو سعيد بن أبى الخير

(١) العتبى = الرضا .

(٢) راجع هذا القول فى «إتحاف السادة للزبيدى» ، جـ ٥ ، ص ٥٧٦ ، كما سيرد بعد ص ١١٨ ، ثم ص ١٢٥ .

إنه سمع من أبى على الفقيه أن رابعة سئلت : كيف بلغتِ هذه المرتبة العالية فى الحياة الروحية ، فأجابت : بقولى دائماً : اللهم إنى أعوذ بك من كل مايشغلنى عنك ومن كل حائل يحول بينى و بينك .

— ٦ —

ماسينيون : مجموع نصوص لم تنشر خاصة بالتصوف الإسلامى :

(vers 195/810) رباح القيسى († 185/801) رابعة (1 - 6)

Chez ces deux ascètes, tous deux de l'école de Basra, l'essor de la vie ascétique mène à des états mystiques déjà différenciés, pose des problèmes de casuistique et de dogme délicats. رابعة esr la sainte par excellence de l'hagiogiaphie sunnite.

1. (لأبى طالب المكى « قوت القلوب », II, 57)=(trad. E, 194) : (متقارب) :

[عن رابعة]

أحبك حبين : حبَّ الهوى   وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى   فشغلى بذكرك عمّن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له   فكشفك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

2. (أبو نعيم : «الحلية» ms. Damas Zah. tas. 115, s.v. رابعة) = (trad. E, 196):

[قيل لرباح] : هل طالت بك الليالى والأيام — بم ؟ — بالشوق إلى لقاء الله . فسكت ... [قالت رابعة] لكنى : نعم !

. . . قال أبو معمر عبد الله بن عمرو ، قال : نظرت رابعة إلى رباح وهو يقبل صبياً من أهله و يضمه إليه ، فقالت : أتحبه ؟ قال : نعم ! قالت : ما كنت

أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه قال : فصرخ رباح وسقط مغشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول : رحمة منه تعالى ذكرُه ألقاها فى قلوب العباد للأطفال . —

3. (id)=(trad. E, 195, n. 3):

قال [رباح] : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة و يأوى إلى مزابل الكلاب .

(p. 7) 4. (خشيش النسائى ap. ملطي «التنبيه» f. 164) = (trad p. 750) :

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حبّ الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم و إرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخُلّة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلّة التى بينهم و بين الله ، لا على وجه الحلال ولكن على وجه الخلة ، كما يَحِلّ للخليل الأخذُ من مال خليله بغير إذنه ، منهم رباح وكليب كانا يقولان بهذه (f. 165) المقالة ويدعوان (فى نص ماسينيون : يدعون) إليها . . .

5. (خشيش ، «الاستقامة» ap. ملطى : «التنبيه» f. 166)=(trad. E 196):

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيم للدنيا ، ومحبة لها ، لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيذ شرابها ولين لباسها وطيب رائحتها ، فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ، وكان من إهانتها مواتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها > <

كانا يقولان بهذه المقالة

6. (عين القضاة الهمذانى ، شكوى ، ms. Barlin, f. 37 b)

(رابعة) . . . وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علو شأنه ، فهجرته أياماً

حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهوانيّ ! اطلُب شهوانيةً مثلك ! »

7. (p. 8) (ابن العماد ، الشذرات ap الوسى , جلاء ، 05)

(عن رابعة) « وعزتك ما عبدتُك رغبــةً فى جَنَّتك ، بل لمحبتك ، وليس هذا (أى الجنة) ما قطعت عمرى فى السلوك إليه » .

8. (ابن تيمية , الرد على الحريرية , f. 65, 91 = (trad. p. 276) :

قال (على الحريرى) : قيل عن رابعة إنها حَجّت فقالت : هذا [أى البيت] الصنمُ المعبود فى الأرض ، و إنه ما ولجه الله ولا خلا منه »(١) .

9. (وأفلاكى : مناقب العارفين (ms. Paris af. parsum 114, f. 411 a) = (Huart, Saints 310).

روزى جماعتى صــاحب دلان ديدند كه رابعــة بدستى آتش گرفتــه بود ، و بدستى آب ، و باستعجال مى دويد ، سوال كردند كه أى بانوى آخرت كجا مى روى ، ودر چيستى ، گفت مى روم آتش در بهشت زنم وآب در دوزخ ريزم ، تا اين هر دو حجاب ره روان از ميانه بر خيزند ، ومقصد مُعيَّن شود ، و بندگان خدا خدارا بى غرض رجا وعلّت خوف خدمت كنند ، چه اگر رجاى جنّت وخوف جحيم نبودى ، يكى حق را نپرستيدى ، ومطاوعت ننمودى ؟(٢)

(١) راجع مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية حـ ص ٨٠ — ض ٨١ ، القاهرة سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

(٢) هاك ترجمتها :

فى ذات يوم رأى جماعة من الفتيان رابعة وفى إحدى يديها نار ، وفى الأخرى ماء وكانت تعدو بسرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! الى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبتغين ؟ فقالت : أنا ذاهبة الى السماء حتى ألقى بالنار فى الجنة وأصب الماء فى الجحيم — فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى ويظهر المقصود ، فينظر العباد الى الله دون رجاء ولا خوف ، ويعبدونه على هــذا النحو — ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء فى الجنة وخوف من الجحيم أفكانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟

10. (وأبو نعيم ، loc. cit. ms Damas Zah tas. 115 s. v.

(رباح) = (E 195, n. 2) :

— عن رباح — قال (الله تعالى للموحدين يوم الدين) : فهل تعرفون ربكم إذا رأيتموه ؟ قالوا : إنْ ما عرفنا نفسَه . قال : فيتجلى لهم تعالى فيخرُّون له سُجَّداً .

11. (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ = ٩١٦ م) أبو طالب المكى , « قوت » ,

(éd. Caire, I, 183)=(p. 45) :

اختلف أهل العلم أيضاً فى عبدٍ ترك ذنباً وعمل فى الاستقامة ، ونفسه تنازعه إليــه وهو يجاهدها ، وفى آخر ترك الذنب وانكمش فى الإصـلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب ولم يكن على قلبه منه ثِقل ولا مجاهدة — أى هذين أفضل ؟ فقال بعض علماء الشام (= أحمد بن أبي الحوارى وأصحـاب أبى سليمان الدارانى) : الذى تنـازعه نفسه وهو يجاهدها أفضل . . . وقال علمـاء البصرة (= رباح بن عمرو القيسى) : الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة . . . أفضل .

— ٧ —

عقلاء المجانين لأبى القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ) ، دمشق سنة ١٩٢٤ .

[١٢٥] : ريحانة

قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله : ذُكِرَتْ لى ريحانة ، فخرجت إلى الأُبُـلَّة ، [١٢٦] فإذا أنا بجارية سوداء قد أثر البكاء فى خديهـا خطاً ، فذاكرتها

شيئاً من أمر الآخرة ، فأنشأت تقول :

مَنْ كان راكبَ يومٍ ليس يأمَنهُ ... وليلَه تائهاً فى عَقْبِ دنياه
فكيف يلتذُّ عيشاً لا يطيبُ له ! ... وكيف تعرف عَيْنَ(١) الغُمْض عيناه!

وأنشدت أيضاً :

صبرتُ عن اللذات حتى تولّت ... وألزمتُ نفسى صبرها فاستمرّتِ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلها الفتى ... فإن أُطْمِعَتْ تاقت ، وإلا تَسَلّتِ

ولها أيضاً :

وما عاشِقُ الدنيا بناجٍ من الرَّدى ... ولا خارجٌ منها بغير غليل
فكم مَلِكٍ قد صَفّرَ الموتُ بيته ... وأُخْرِجَ من ظلٍّ عليه ظليلِ

ولها أيضاً :

حَسْبُ المحب من الحبيب بعلمه ... أن المحب ببابه مطروحُ
والقلب فيه إن تنفّسَ فى الدُّجَى ... بسهام لوعات الهوى مجروح

وأنشدت أيضاً :

بوجهك لا تعذّبنى فإنى ... أؤمِّلُ أن أفوزَ بخير دارِ(٢)
مُنَجَّدةٍ مزخرفةِ العلالى ... بها المأوى ، ونِعْمَ هى القرار!
وأنت مجاورُ الأبرارِ فيها ... ولولا أنت ما طاب المزار

وأنشدت أيضاً :

اجعل لنفسك فى الليالى نبهة ... تنبهك من خلَل المنام قياما
وأنَسْ إلى طول القيام مخلداً ... واترك لذيذ النوم والأحلاما(٣)

---

(١) كذا ! ولعل صوابه : طعم .

(٢) كذا بالكسر ، مع أن بقية أواخر الأبيات بالضم .

(٣) فى المطبوع : قيام ... الأحلام .

وأيضاً :

تَعَوَّدْ سهرَ الليـــل فإن النوم خُسران
ولا تَرْكَنْ إلى الذنب فإن الذنب نيران
فكن للوحى دَرَّاساً : وللقـــــرآن أخدانُ
[١١٧] إذا ما الليـــل فاجاهم فَهُمْ فى الليـل رُهْبان
يميـــلون كما مالَ مِنَ الأرياحِ أغصانُ

وأيضاً :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه عذاباً كلما كبرت لديه
تهين المكرمات بها بصِغرٍ وَتكْرُمُ كلما هانت عليه
إذا استغنيت عن شىء فدعه وخذ ما كنت محتاجا إليه

...

حَيُّـــونة

قال راشد بن علقمة الأهوازى : كانت حيونة إذا جَنَّها الليلُ تقول فى دعائها : ياواحدى ! تمنعنى بالليل التلاوة ، ثم تقطعنى عنك بك فى ضياء النهار ؟ ! إلهى ! وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك !

قال سلام الأسود : طلعَتْ عليها الشمسُ يوماً فآذتها ، فقالت :

إن كنت تعـــلم أننى بك والهٌ فاصرف سموم الشمس عَنِّىَ ، سَيِّدى !

قال : فغمت السماء فى الوقت .

قال سلام : صامت حيونة حتى اسودت ، فموتبت فى ذلك ، فرفعت طَرْفها [١٢٨] إلى السماء وقالت : قد لامنى خلقُك فى خدمتك ؛ فوعِزَّتك وجلالك ! لأخدُمَنَّك حتى لايبقى لى عَصَب ولا قَصَب . ثم أنشأت تقول :

ياذا الذى وعد الرضا لحبيبه أنت الذى مإن سواك أريد

قال سلام الأسود : نظرتُ إليها فى يوم شديد الحر ، فقالت : اسكت ! عند المَبْلَغ يفرح الواردون ، وعند العَرْض تنقطع الأسباب ، وعند قوله خذوه تنشر أعلام العارفين .

زارت رابعةُ حيونة ، فلما كان جوفُ الليل حمل النوم على رابعة ؛ فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهى تقول : قومى ! قد جاء عُرْسُ المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجد !

قال[١] سلام : وقفت حيونة يوماً على عبد الواحد ثم نادت : يامتكلم ! تكلم عن نفسك ! ولله لو مُتَّ ماتبعتُ جنازتك. قال : ولِمَ؟ قالت : تتكلم على الخليقة وتتقربنّ لهم ! ماشبهتك إلا بمعلِّم صبيٍّ علّمه أن يحفظ بالقسىّ فإذا بكر من بيت أمه نسى ، فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب ياعبد الواحد ! اضرب نفسك بدِرَّة الأدب ، وتزوّد زاد القناعة ، واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك ؛ ثم تكلم على الخليقة . قال سلام : فلقد عَرِق عبد الواحد وأقام مايتكلم على الناس سَنة. وأنشدَتْ :

وليس الميّتِ فى قبره فطرٌ ولا أضحى ولا عَشرُ
بات من الأهل على قربه كذلك مَنْ مسكنُه القبرُ

قال سلام : سمعت حيونة تقول : من أحبَّ الله أَنِس ، ومن أنس طَرِب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق وَلِهَ ، ومن وَلِهَ خَرُمَ[٢] ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان .

وكانت تقول : اللهمَّ هبْ لى سكون قلبى [١٢٩] بعقد الثقة بك ، واجعل جميع خواطرى واثقة برضاك ، ولا تجعل حظى الحرمان منك ، يا أمل الآملين !

قال إبراهيم : زارت ريحانةُ حيونةَ ، فلما جَنَّ الليل جاء المطر والريح الشديد ،

(١) فى هذه القصة مهاجمة للوعاظ من الصوفية — فتأملها .
(٢) خرم (من باب كرم) خرامة : كان ذا مجون وخلاعة .

ففزعت ريحانةُ ، فضحكت حيونة وقالت لها : يا مدبرة العمل ! لو علمتُ أن فى قلبى محبة غيره أو خوف سواه لوجأتهُ[1] بالسكين .

سلمونة

قال سهل بن سعد : كانت عندنا بعَبَّادان امرأةٌ مجنونة اسمها سلمونة ، وكانت تُغَيِّب شخصها بالنهار فلا ترى ، فإذا كان الليل صعدت السطح وجعلت تنادى إلى الصباح : سيدى ومولاى ! جَنَبْتَنى عن عقلى، وأوحشتنى عن خلقك ، وآنستنى بذكرك ، وقد نفيت عن خلقك ، فوا أسفا ! إن نفيتُ عنك .

ميمونة

قال إبراهيم بن الأدهم : رأيت فى المنام كأن قائلا يقول : إن ميمونة السوداء زوجتُك فى الجنة . قال : فكنت أطلبها حتى وجدت أثرها بحمص ، فطلبتها فقيل إنها مجنونة لا تألف أحداً . قلت : فأين هى ؟ قيل : دفعنا إليها أغناماً ترعاها فى الجبانة . فخرجتُ إلى الجبانة فإذا هى قائمة تصلى، والشاة والذئب فى مكان واحد ؛ فوقفتُ متعجباً . فلما قضت الصلاةَ قالت : يا إبراهيم ! الموعد فى الجنة لا هنا . فعجبت من فطنتها . فقلت : يا سبحان الله ! ألست مؤتمنة على هذه الأغنام ؟ قالت : بلى . قلت : فلِمَ عطلتها حتى توسطتها الذئابُ ؟ قالت : سلمتها إلى منشئها . ثم قالت : ارتفعت الحشمة بينى و بين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع الوحشة بين الشاة والذئاب . ثم ولت وأنشأت تقول :

قلوبُ العارفين لها عيونُ   ترى مالا يراه الناظرونا
وألسنةٍ بسرٍّ قد تَنَاجَى   تغيب عن الكرام الكاتبينا
[١٣٠] وأجنحةٍ تطير بغير ريش   إلى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صِرْفاً   وتشربُ من كؤوس العارفينا

(١) الضمير يعود على القلب .

— ٨ —

الزبيدى «إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالى» :

(ا) حـ ٩ ، ص ٥٧٦ :

. . . (وقال) سفيان (الثورى) رحمه الله تعالى (لرابعة) ابنة اسماعيل العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى ؛ وكانت إحدى المحبين ؛ ماتت سنة ١٣٥ . وكان الثورى يقعد بين يديها ويقول : علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة . وكانت تقول له : نِعمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان الثورى زاهداً عالماً ، إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها الثورى يوماً : لكل عَقْد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة و (ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل) أو إذا أعطى عمل ، (بل عبدته حباً له وشوقاً إليه) . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إنى لأستحيى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! فكان هذا جواباً لأنه قال : سلينى حاجتك . وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبته أياماً حتى سئلت أن يدخل عليها ، فقالت له : يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! ؟ أىّ شىء رأيت فىّ من آلة الشهوة ؟ ! وخطبها محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة على مائة ألف وقال : لى غَلّة عشرة آلاف فى كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لى عبد ، وأن كل مالك لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين . (و) قد قالت فى معنى المحبة ، أبياتاً (نظما) تحتاج إلى شرح ، حملها عنها أهلُ البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثورى وجعفر بن سليمان الضُّبعى وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد وهى هذه :

(أحبك حبين: حب الهوى وحباً لأنك أهـل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواك
وأما الذى أنت أهـلٌ له فـكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولـكن لك الحمد فى ذا وذاك) [٥٧٧]

وقد تكلم صاحب «القوت» على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه من رزقه وينكره من حُرِمه . والمصنف رحمه الله أشار إلى زبدة كلامه . فلنورد كلامه أولا ثم كلام صاحب «القوت» . قال المصنف : (ولعلها أرادت «بحب الهوى» حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، «وبحبه لما هو أهل له» الحبَّ لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحُبَّيْن) فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دواماً . وأما صاحب «القوت» فقال : فأما قولها : «حب الهوى» وقولها «حب أنت أهل له» وتفرقتها بين الحبين فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ولا قدر له به ، ولـكنا نُجْمل ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الهوى — أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمعِ تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىَّ ؛ ولـكن محبتى من طريق العيان ، فقربت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرغت لك كما قال المحب :

فرَّغت قلبها اشتغالا بذكرى وكذا كلُّ فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى: «وأصبح فؤاد أمِّ موسى فارغاً»(١) أى ملآن بذكره حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول : هو ابنى . فعبر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل .

(١) سورة القصص : آية ٩ .

وأما الحب الثانى الذى هو أهل له : تعنى حبَّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل — أن[١] أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لا يوجب لك جزاء عليه بل يوجب علىَّ كلَّ شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبداً ، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوفُ التقصير ، ووجب علىَّ الحياء من قلة الوفاء والخوف لما تعرضتُ به من حبك ، إذ ليس كمثلك شىء ، كما قال المحب:

أصبحتُ صبًّا ولا أقول بمن　　خوفاً لمن لا يخافُ مِنْ أحد
إذا تفكرتُ فى هـواى له　　لمستُ رأسى:هل طار عن جسدى؟

لولا أن الحب ينطق والشوق يقلق، والوجد يحرق. فالمحب لا يلام لغيبة النفس عنه ، وإلا نام . تقول : فتفضلت علىَّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ، فأريتنى وجهك عندك آخراً ، كما أريتنيه اليوم عندك أولا ؛ فلك علىَّ ما تفضلت به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولاحمد لى فى ذا ها هنا ، ولاحمد لى فى ذاك هناك ، إذ كنت أنا وصلت إليها بك ؛ فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما .

فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنس فى وجدها وترتفع إلى وصف معنى من الخُلَّة فى قولها السائر :

إنى جعلتك فى الفؤاد مُحدِّثى　　وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسمُ منى للجليس مؤانسٌ　　وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

ومن قولها النادر فى مقام الخُلَّة :

وتخللتَ مَسْلكَ الروحِ منى　　وبه سُمِّى الخليلُ خليلا
فإذا مانطقتُ كنتَ حديثى　　وإذاماسكتُّ كنتَ الغليلا

وقد أهَّل ذلك لها كل ما نقله عنها من العلماء ووصفوها به ، فوصفنا من

(١) أن المصدرية وما بعدها واقع فى محل نصب لأنه مفعول : أستحق ... أستأهل .

نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها ، لأنا ظننا بقولها ذلك إن كان لها فى المحبة قدم. ولا يسعنا أن نشرح فى كتابٍ حقيقةَ كشف ما أجملناه ، ولا أن نفصّل وصف ما ذكرناه . ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يُدِلّ بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه ، ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبة ، ومحجوب بالنظر إليها. وإنما ذلك مقام الرجاء — الذى ضده الخوف — ليس من المحبة فى شىء ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين : ماعرفه من ظن أنه عرفه ، ولا أحبه من توهم أنه أحبّه — هذا كلام صاحب « القوت » .

(ب) ح ٩ بالهامش ص ٦٨١ فى باب : « بيان جملة من حكايات المحبّين وأقوالهم ومكاشفاتهم » :

« وقالت رابعة العدوية يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه » .

فى شرح الزبيدى :« (وقالت) أم الخير (رابعة) بنت اسماعيل (العدوية) البصرية قدس سِرُّها المتوفية سنة ١٣٥ (يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه) — اعلم أن رابعة قدس سرها كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعية . وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ؛ والمحبُّ فى مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال . فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم ، فتمتنع عنه القواطع . فما أدق نظرها رحمها الله ! »
[فى صلب ص ٦٨١ ح ٩]

(ح) ح ٩ بالهامش ص ٦٨٢ : الباب عينه :

« وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إنى لأحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين » .

فى شرح الزبيدى : « (وقيل لرابعة) العدوية قدس سرها (كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم — فقالت : إنى والله أحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين) وحكى عن أبى سعيد الخراز ، قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت . يارسول الله ! اعذرنى ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك ! من أحب الله فقد أحبنى — نقله القشيرى» [فى صلب ص ٦٨٢ حـ ٩] .

(د) فى شرح الزبيدى (نقــلا عن كتاب « مصارع العشاق » لأبى محمد السراج)[1] .

« أخبرنا القــاضى أبو الحسن التَّوَّزى ؛ أخبرنا ابن يحيى ؛ حدثنــا الحسين ابن صفوان ؛ حدثنا ابن أبى الدنيا ؛ حدثنا محمد بن الحسين ؛ حدثنى أبو مَعْمَر صاحب عبد الوارث ، قال : نظرت رابعة إلى رباح القيسى وهو يقبّل صبياً من أهله ويضمُّه إليه فقالت : أتحبــه يا رباح ؟ قال : نعم . قالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره . قال : فصاح رباح وسقط مغشياً عليــه » (حـ ٩ ص ٦٨٨) .

(هـ) شرح الزبيدى حـ ٩ ص ٦٨٨ :

وردت الأبيات المشهورة المنسوبة إلى رابعــة على أنها ليست لها بل لجارية لقيها ذو النون ؛ قال : (وهو ينقل عن مصارع العشاق لأبى السرّاج)[2] :

« ... قال ذو النون : بينا أنا أسير على ساحل البحر إذ بصرتُ بجارية

---

(١) راجعه بعد ، وهو فى « مصارع العشاق » ص ١٨١ ، طبع الجوائب سنة ١٣٠١ .

(٢) وردت فى مصارع العشاق لأبى محمد السراج القارى، ص ١٨٠ — ص ١٨١ ، طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ .

عليها أطمار شَعَر ؛ وإذا هى ناحلة ذابلة . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح واضطربت الأمواجُ وظهرت الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض . فلما أفاقَتْ — نحبت . ثم قالت : سيدى ! بك تقرب المتقربون فى الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواجُ المتلاطمات . أنت الذى سجد لك سوادُ الليل وضوء النهار ، والفلك الدوّار ، والبحر الزخار ، والقمر النوّار والنجم الزّهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلىُّ القهار .

يا مُؤْنِسَ الأبرار فى خَلَواتهم … ياخيرَ من حَلّتْ به النزّالُ

من ذاق حُبَّكَ لا يزال مُتَيَّماً … فَرِحُ الفؤاد ـ متيماً ـ بَلْبال

من ذاق حُبّك لا يرى متبسماً … فى طول حزن فى الحشا إشعالُ

فقلت لها : زيدينا من هذا ! فقالت إليك عنى ؛ ثم رفعت طرْفها إلى السماء وقالت :

أُحبُّك حُبّين : حبَّ الوداد ، … وحباً لأنك أهل لذاك

فأما الذى هو حبّ الوداد … فحبٌّ شُغِلتُ به عن سواك

وأما الذى أنت أهل له … فكشفك للحُجْب حتى أراك

فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى … ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

ثم شَهقتْ شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا . فبقيت أتعجبُ مما رأيت منها ؛ فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشَّعَر ، فاحتملنها فغيبنها عن عينى فغسّلنها ، ثم أقبلن بها فى أكفانها . فقلن لى : تقدم فصلِّ عليها . فتقدمت وصلَّيت عليها وهن خلفى . ثم احتملنها ومضين . . . »

— ٩ —

«الرسالة القشيرية» ، القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ :

(ا) فى باب الرضا :

« وسئلت رابعة متى يكون العبد راضياً ، فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة » (ص ٨٩)

(ب) فى باب التوبة :

« وقال رجل لرابعة : إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبتُ ، هل يتوب على ؟ فقالت لا ! بل لو تاب عليك لتُبْتَ . » (ص ٤٨)

(حـ) فى باب المحبة :

« قالت رابعة فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق (١٤٨) بالنار قلباً يحبك ؟ فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ؛ فلا تظنى بنا ظن السوء . » (١٤٧ — ١٤٨)

— ١٠ —

«صفة الصفوة» لابن الجوزى ، جـ ٤ ص.٥٧ ، مخطوط الظاهرية تاريخ ٦٧ :

«أخبرنا أبو القاسم الحريرى قال : أنبأنا أبو طالب العُشارى ، قال : أنبأنا أبو بكر البرقانى ، قال أنبأنا ابرهيم بن محمد الزكى ، قال حدثنا محمد بن اسحق السراج قال : حدثنا حاتم بن الليث الجوهرى ، قال حدثنا عبد الله بن عيسى ، قال :

دخلت على رابعة العدوية بيتها فرأيت على وجهها النور ، وكانت كثيرة البكاء ؛ فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت .

ودخلتُ عليها وهى جالسة على قطعة بوريّ خَلَقٍ ، فتكلم رجل عندها

بشيء ، فجعلت أسمع وقع دموعها على البوريّ مثل الوَكف . ثم اضطربت وصاحت. فقمنا وخرجنا .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أنبأنا الحسن بن أحمد الفقيه ، قال : أنبأنا محمد بن أحمد ، قال: أنبأنا أحمد بن جعفر بن سلم ، قال: حدثنا أحمد بن عبد الخالق قال : أنبأنا يعقوب بن يوسف ، عبد اسحق بن ابراهيم ، قال حدثنا مسمع بن عاصم ورباح القيسي قالا : شهدنا رابعة وقد أتاها رجل بأربعين ديناراً فقال لها. تستعينين بها على بعض حوائجك ؛ فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت : هو يعلم أني أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن لا يملكها !

أنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، قال : أنبأنا العتيق ، قال أنبأنا عثمان (ص : عثم) بن عمر بن المنتاب ، قال : أنبأنا ابن محمد بن عبد الله بن سليمان النامى ، قال ، حدثنا بن حبيب البزاز ، قال : حدثنا الفضل بن موسى البصرى ، قال : حدثنا ابراهيم بن بشار الرمادى ، قال حدثنا محمد بن أبي حاتم [٥٧ ب] قال : حدثنا محمد بن عمرو قال :

دخلت على رابعة وكانت عجوزاً(١) كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشَّن تكاد تسقط ، ورأيت في بيتها كراحة بوارى ومشجب قصب فارسى طوله من الأرض قدر ذراعين ، وستر البيت جلة وربما كان بورياً(٢) وحُبّ وكوز ، ولبد هو فراشها وهو مصلاها ، وكان لها مشجب من قصب عليه أكفانها . وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابها رِعْدة . وإذا مرت بقوم ، عرفوا فيها العبادة . وقال لها رجل : ادعى لى ! فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا ، يرحمك الله! أطِـع ربك وادْعُه فإنه يجيب المضطر .

(١) ص : عجوز . (٢) ص : بورى .

أخبرنا المحمدان برأى منصور وابن عبد الباقى قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا أحمد بن على التودى ، قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، قال : أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد القرشى ، قال ، قال محمد بن الحسنين : حدثنى سحف (كذا) بن منظور قال :

دخلت على رابعة وهى ساجدة . فلما أحست بمكانى رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمتُ ، فأقبَلَتْ علىَّ فقالت : يا بنى ! لك حاجة ؟ فقلت: جئتك لأسلم عليك . قال : فبكت وقالت : «سَترك اللهم سترك ! » ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت .

قال القُرَشى : وحدثنى محمد بن إدريس قال ، حدثنا أحمد أبى الحوارى ، قال حدثنا العباس بن الوليد ، قال ، قالت رابعة[1] : أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى : استغفر الله !» .

قال القرشى : وحدثنى أزهر بن مروان ، قال دخل على رابعة رباحُ القيسى وصالح بن عبد الجليل [٥٨ ا] وكلاب ، فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها فقالت رابعة : إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم ، قالوا ، ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال القرشى : وحدثنى أبو جعفر المدينى عن شيخ[2] من قريش قال : قيل لرابعة : هل عملت عملا ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان ، فمخافتى أن يرَدّ علىّ .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى قال : أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب قال : حدثنا عبد الله بن أيوب المنزى (كذا) قال : حدثنا شيبان بن فروخ قال : حدثنا جعفر بن سليمان ، قال :أخذ بيدى سفيانُ الثورى وقال: مُرّ إلى المؤدبة التى

(١) المقصود هنا رابعة بنت اسماعيل ، مادامت الرواية بسند أحمد بن أبى الحوارى زوجها .

(٢) يصح أن تكون : سائح .

لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتُها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال اللهم إنى أسألك السلامة . فبكت رابعة . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أنت عَرّضتنى للبكاء . فقال لها ، وكيف ؟ قالت ! أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها !

وقال الثورى بين يدى رابعة : وا حزناه ! فقالت : لا تكذب ؟ قل : واقلة حزناه ! لو كنت محزوناً ما هَنَّأك عيش .

أخبرنا محمد بن أبى منصور قال: أنبأنا محمد بن على الكوفى ، قال: أنبأنا على ابن المُحسن التنوخى ،قال: حدثنا على عمر الخيّلى[١] ، قال: حدثنا محمد بن عبده ابن حرب القاضى ، قال : حدثنا شيبان بن فروخ ، قال: سمعت جعفر بن سليم يقول : سمعت رابعة تقول لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ؛ فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم، فاعمل .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال : أنبأنا محمد بن هبة الله الطبرى ، قال : أنبأنا على بن محمد بن الشران ، قال : حدثنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد القرشى،قال: حدثنى (٨٥ ب) محمد بن الحسين، قال:حدثنى عُنَيْس ابن مرحوم العطار ، قال حدثتنى عبدة بنت أبى شوال – وكانت من خيار إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة – قالت : كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

قالت : فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت : يا عبدة ! لا تؤذنى بموتى أحداً ولفينى[٢] فى جبتى هذه (جبة من شعر

(١) مشددة الياء فى الأصل . هكذا : الخيلى (٢) س : لفسى .

كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون) . قالت : فكفناها فى تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه . قالت عبدة : رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى ، عليها حُلّة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه . فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة[١] التى كفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله : نُزِعَ عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه علىّ ، وطويت أكفانى وختم عليها ورُفِعَتْ فى عليين لتكمل لى بها ثوابها يوم القيامة . قالت ، فقلتُ لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا . فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! قالت: فقلت : فما فعلتْ عبيدة بنت أبى كلاب ؟ فقالت : هيهات ! هيهات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العُلى . قالت : قلتُ و بم ؟ وقد كنتِ عند الناس ! — أى أكثر منها — قالت : إنها لم تكن تبالى على أى حالٍ أصبحت من الدنيا وأمست . قال : فقلت : فما فعل أبو مالك ؟ — يعنى ضيغماً ؟ قالت: يزور الله عز وجل متى شاء . قالت : قلتُ فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخٍ ! أعطى والله فوق ما كان يأمُل[٢] . [٥٩ ا] قالت : قلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل! قالت : عليكِ بكثرة ذكره ؛ أوشَكَ أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

قلتُ : اقتصرت ها هنا على هذا القدر من أخبار رابعة لأني قد أفردت لها كتاباً فيه كلامها وأخبارها .

— ١١ —

« صفة الصفوة » لابن الجوزى جـ ٤ ص٢٠٢ ا برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية :

رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى :

كذا نسبها أبو بكر بن أبى الدنيا ؛ وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلَمى أن رابعة

---

(١) ص : الجبة (٢) ص : يألم .

العدوية تشارك هذه فى اسمها واسم أبيها وعموم ما يأتى فى الحديث عن زوجة أحمد أنها رايعة بالياء ؛ والعدوية بصرية وهذه شامية .

وقد أخبرنا أبو ناصر ، قال : أنبأنا أبو الغنائم بن النرسى قال : رابعة بالباء بنقطة فى تحتها بصرية . ورايعة باثنتين من تحتها شامية .

قال : ثنا عبد الواحد بن بكر ، قال : ثنا اسحٰق بن أحمد بن على ، قال : ثنا ابراهيم بن يوسف ، قال ثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : قلت لرايعة وهى امرأتى وقامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، ما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت . قال : وجلست آكل وتذكِّرُنى فقلت لها : دعينا يهنينا طعامنا. قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة . أخبرنا محمد بن عبد الباقى : قال أنبأنا (٢٠٢ ب) الحسن بن عبد الملك بن يوسف ، قال : أنبأنا أبو محمد الخلال ، قال : حدثنى على بن عمر بن على النجار ، قال : ثنا ابراهيم بن أحمد بن الحسن القرمسينى ، قال : سمعت محمد ابن اسحٰق السراج ، يقول : سمعت على بن موفق يقول ، سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : قالت لى رايعة : أى أخى ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوىء عمله ، فتشاغل به دون خلقه !

أنبأنا محمد بن أبى منصور ، قال أنبأنا محمد بن أبى نصير الحميدى ، قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد الأردستانى ، قال : ثنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى ، قال سمعت أبا عمرو ومحمد بن محمد النجار الرازى يقول : سمعت محمد بن طيفور يقول : سمعت عمر بن محمد يقول عن أحمد بن أبى الحوارى ، قال : كانت لرابعة أحوال شتى فمرةً يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف . فسمعتها فى حال الحب تقول :

حبيب ليس يَعْدِلُه حبيب ولا لسواه فى قلبى نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن فى فؤادى ما يغيب

وسمعتها فى حال الأنس :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى[١] من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وسمعتها فى حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مُبَلِّغى ألازاد أبكى أم لطول[٢] مسافتى ؟!
أَتُحْرِقنى بالنار يا غاية المنى فأين رجائى فيك ! أين مخافتى !

أنبأنا المحمّدان : ابن أبى منصور وابن عبد الباقى قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد قال : أنبأنا أحمد بن على التوزى قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، قال أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر القرشى ، قال: حدثنى محمد بن إدريس ، قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : سمعت رابعة تقول : إنى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، و إنى لأرى ذراعى قد سمن فأحزن . قال : وربما قلت لها : أصائمة أنت اليوم ؟ فتقول : وما مثلى يفطر فى الدنيا . قال : وربما نظرت إلى وجهها ورقبتها (١٢٠٣) فيتحرك قلبى على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتى أصحابنا من أثر العبادة . وقالت لى : لست أحبك حب الأزواج ؛ إنما أحبك حب الإخوان ، و إنما رغبت فيك رغبة فى خدمتك ، و إنما كنت أتمنى أن يأكل مالى مثلك ومثل إخوانك . قال أحمد : وكانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها علىَّ . وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كلها ياسيدى فما نضجت إلا بالتسبيح ! وقالت لى : لست أستحل (أن) أمنعك نفسى وغيرى؛ اذهب فتزوج . قال: فتزوجت ثلاثا . وكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنت إذا أردت جماعها نهاراً

---

(١) س : جسمى (٢) تحتها : لبعد — وقد ضرب عليها .

قالت : بالله لا تفطرنى اليوم . و إذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبتنى لله الليلة .

قال أبو بكر القرشى ، وحدثنى عون بن ابرهيم ، قال : ثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : سمعت رابعة تقول ، ما سمعت الأذان ذكرت منادى القيامة ، ولا رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب ، قال ، أنبأنا أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : ثنا أبو جعفر الرازى ، قال ، ثنا العباس بن حمزة ، قال ، ثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : قالت رابعة : نحُّوا عنى ذلك الطست ، فإنما عليه مكتوب : مات أمير المؤمنين هارون الرشيد . قال أحمد : فنظروا فإذا هو مات ذلك اليوم .

أنبأنا محمد بن عبد الباقى ، قال ، أنبأنا رزق الله ، قال : أنبأنا السلمى ، قال : ثنا محمد بن أحمد بن سعيد ، قال : العباس بن حمزة ، قال : ثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : سمعت رابعة تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون ؛ وربما رأيت الحور العين يستترن منى بأكمامهن ، وقالت بيدها على رأسها . قال أحمد ، ودعوت رابعة فلم تجبنى ؛ فلما كان بعد ساعة أجابتنى وقالت : إنما منعنى أن أجيبك أن قلبى قد كان امتلأ فرحاً فلم أقدر أن أجيبك .

— ١٢ —

ابن تيمية : «مجموعة الرسائل والمسائل» حـ ١ ص ٨٠—٨١ ،

القاهرة سنة ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢

... وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود فى الأرض فهو كذب على رابعة . ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكن يعبدون رب

البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها : والله ما ولجه الله ولا خلا منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره فى هذا المعنى ، فلأى مزية يطاف به ويُصلى (٨١) إليه ويحج دون غيره من البيوت ! وقول القائل : ما ولج الله فيه — كلام صحيح . وأما قوله ، ما خلا منه — فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل وهو مناقض لقوله ماولج فيه ؛ وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له ، لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير حال فيه . فهذا ، مع أنه كفر وباطل ، يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

— ١٣ —

الجزء الثالث من « عيون التواريخ » لصلاح الدين محمد بن شاكر الكتبى ، برقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق ورقة ٧ ب ، عن سنة ١٣٥ :

بعد أن أورد ما أورده ابن خلكان إلى ماجاء فى عوارف المعارف من الشعر :

« قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة العدوية وهى جالسة على قطعة بارية ، فتكلم رجل عندها بشىء ، فجعلت أسمع وقع دموعها على البارية مثل الوكف . ثم اضطربت وصاحت فقمنا وخرجنا .

وقال محمد بن عمرو : دخلت على رابعة وكانت عجوزاً[(١)] كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشن تكاد تسقط . فرأيت فى بيتها كواخد بوارى ومشجب[(٢)] قصب فارسى ، طوله من الأرض قدر ذراعين ، عليها أكفانها ، وستر البيت جلة[(٣)] ، وحُب وكوز ولبد وهو فراشها وهو مصلاها . قال لها رجل : ادعى لى ! فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا يرحمك الله ! أطع ربك واعبده وادعوه ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

---

(١) ص : عجوز (٢) ص : مشجب (٣) ص : جلد .

قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى : كانت رابعة محققة فطنة . ومن كلامها الدالّ على قوة همتها قولها : أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله .

وكان سفيان يقول : مروا بنا إلى المؤدبة الذى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها .

وقد جمع ابن الجوزى أخبارها فى كتاب .

وكانت وفاتها على قول ابن الجوزى (١٨) فى هذه السنة . وقال غيره سنة خمسة وثمانين ؛ وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار — رضى الله عنها .

— ١٤ —

«مصارع العشاق» لأبى محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج القارى
طبع الجوائب سنة ١٣٠١ باستانبول

(١) ص ١٣٦ :

« أخبرنا القاضى أبو الحسين أحمد بن على بن الحسين التوزى بقراءتى عليه ، قال أخبرنا محمد بن عبد الله القطيعى ، قال حدثنا الحسين بن صفوان ، قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشى ، قال حدثنا محمد بن الحسين ، قال حدثنى عصام بن عثمان الحلبى ، قال حدثنى مسمع بن عاصم قال :

قالت لى رابعة العدوية: اعتللت علة قطعتنى من التهجد وقيام الليل ، فمكثت أياماً أقرأ جزئى إذا ارتفع النهار لما يذكر فيه أنه يعدل بقيام الليل . قالت : ثم رزقنى الله عز وجل العافية . فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت إلى قراءة جزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيام الليل . قالت : فبينا أنا ذات ليلة راقدة أريت فى منامى كأن رفعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن . فبينا أنا

أجول فيها أتعجب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنها تريد أخذه قالت : فشغلني حسنها عن حسنه . فقلت : ما تريدين منه ؟ دعيه ! فوالله ما رأيت طائراً قط أحسن منه . قالت : بلى ! ثم أخـذت بيدى فأدارت بى فى تلك الروضة حتى انتهت بى إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت ففتح لها ، ثم قالت: افتحوا لى بيت[1] المقة ؛ قالت ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره مابين يدى وماخلفى . وقالت لى : ادخل ! فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر تلألؤاً وحسناً ، ما أعرف له فى الدنيا شبيهاً أشبّهه به . فبينا نحن نجول فيه إذ رفع لنا باب ينفذ منه إلى بستان ؛ فأهوَتْ نحوه وأنا معها . فتلقانا فيه وُصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ ، بأيديهم المجامر . فقالت لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد فلاناً ، قتل فى البحر شهيداً . قالت : أفلا تُجْمِرا[2] هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان لها فى ذلك حظ فتركته . قالت : فأرسلَتْ يدها من يدى ثم أقبلَتْ علىّ فقالت :

صلاتك نورٌ والعبادُ رقود ونومُك ضدٌّ للصلاة عتيدُ
وعُمْرُك غُنْمٌ إن عقلت ومَهْلَة يسيرٌ ويفنى دائماً ويَبيد

ثم غابَتْ من بين عينىّ ؛ واستيقظتُ من تبدى الفجر . فوالله ما ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلى وأنـكرت نفسى . قال : ثم سقطت رابعة مغشياً عليها .

(ب) وفى ص ١٨١ :

« أخبرنا القاضى أبو الحسين أحمد بن على بن الحسين التوزى رحمه الله بقراءتى عليه ، أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخى ميمى، حدثنا الحسين بن صفوان، حدثنا عبد الله بن محمد القرشى ، حدثنى محمـد بن الحسين ، حدثنى أبو معمل صاحب عبد الوارث قال :

---

(١) فى المطبوع : بيت لقة أقالت .

(٢) أجمر الثوب : بخره بالطيب .

نظرت رابعة إلى رباح القيسى وهو يقبل صبياً من أهله و يضمّه إليه فقالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره . قال : فصاح رباح وسقط مغشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمة منه — تعالى ذِكرُه — ألقاها فى قلوب العباد للأطفال» .

— ١٥ —

للشيخ عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الأولياء »

رقم ٤١٦٤ خط بالظاهرية بدمشق .

(١٠٤ ا) رابعة العدوية :

القيسية ثم البصرية ، رأس العابدات ورئيسة الناسكات القانتات الخائفات الوجلات . كانت فى عصر الحسن البصرى . وهى إحدى النساء اللاتى تقدمن ومهرن فى الفضل والصلاح كأم أيوب الأنصارية وأم الدرداء ومعاذة العدوية . وهى من بينهن المشهورة بعظيم النسك ومزيد العبادة وكمال النزاهة والزهادة . كانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة ، فقيل لها : ما تطلبين بهذا ؟ قالت : لا أريد به ثواباً وإنما أفعله لكى يسر رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبياء : انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها .

وكانت تصلى الليل كله ؛ فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها قليلا حتى يسفر الفجر ثم تثب[١] وهى فزعة وتقول : يا نفس ! كم تنامين[٢] ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا قومة لها إلا لصرخة يوم النشور .

وكتب محمد بن سليمان الهاشمى — وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانين ألف درهم — إلى كبراء أهل البصرة فى امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة ، فكتبت[٣] إليه :

(١) س : تثبت . (٢) س : تنامى . (٣) س : فكتب إليها — والسياق وصيغ الأفعال تقتضى ما أثبتناه .

«أما بعد ! فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛ فهيء مزادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ، ولاتجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصم الدهر واجعـل فطرك الموت . وأما أنا فلو خولنى الله (١٠٤ ب) أمثال ما خولك وأضعافه ، فلم يسرنى أن اشتغل عن الله طرفة عين والسلام » .

ومن كراماتها

أن لصاً دخل حجرتها وهى نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده فوضعها فوجده ؛ فحملها ، فخفى عليه . فأعاد ذلك مراراً . فهتف به هاتف : دع الثياب فإنا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة .

قال البونى : وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه[1] ». الآية .

وخاطت بعض قميصها فى ضوء مشعلة سلطانية ، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت ، فمزقت القميص ، فعاد قلبها .

وسئلت: متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت :إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة . وكانت شديدة الخوف جداً ، فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها . وكانت تقول : لو كانت الدنيا لرجل ، ما كان بها غنياً . قيل : كيف ؟ قالت : لأنها تفنى . قالوا : مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياء من الله .

وكانت تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ وما رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .

وقالت : استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه .

وذم بعضهم الدنيا فقالت : قال رسول الله : من أحب شيئاً أكثر من ذكره ؛ ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم ، إذ لو كنتم غرقى فى غيرها ماذكرتموها .

---

(١) سورة الرعد : ١٢ .

وأتاها رجل بأربعين ديناراً فقال: استعيني بها على بعض حوائجك! فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء، ثم قالت: هو يعلم أني أستحيي (١١٠٥) منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها، فكيف آخذها ممن لا يملكها؟!

وكانت إذا قال لها إنسان: ادع[1] لي! ترتعد وتقول: من أنا؟! أطعْ ربك وادعه فإنه يجيب المضطر.

وقيل لها: عملت عملا ترين أن يقبل منك؟ قالت: إن كان، فخوفي أن يُرَدَّ عليَّ وأخذ سفيان بعض إخوانه وقال: نذهب إلى المؤدبة التي لا أحد أستريح إليه إذا فارقتها. فلما دخلا عليها رفع سفيان يده وقال: اللهم إني أسألك السلامة! فبكت، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: عرّضتني للبكاء. أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت ملطخ بها؟! وقالت: إنما أنت أيام معدودة؛ فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل؛ وأنت تعلم فاعمل. وقال لها: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً لجنته، فأكون كالأجير السوء — عبدته حباً وشوقاً إليه.

وقال مالك بن دينار: أتيتها فإذا هي تقول: كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها! يا رب! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار؟!

ومن مناجاتها

إلهي: تحرق بالنار قلباً يحبك؟ فقيل لها: لا تظني بنا ظن السوء. وكانت تنشد:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وكانت كل ليلة تتطيب وتأتي زوجها وتقول: ألك حاجة؟ فإن كان له قضى وطره، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح.

---

(١) ص: أدع.

وكان كفنها لم يزل عندها ؛ ويجدون محل سجودها كالماء المتنقع من كثرة (١٠٥ ب) البكاء .

وقال لها رجل: إنى أكثرت من المعاصى ، فلو تبتُ هل يتوب علىّ ؟ قالت: لا بل لو تاب عليك لتبت : « ثم تاب عليهم ليتوبوا[١] » .

وسمعت سفيان الثورى يقول : واحزناه ! فقالت : لا تكذب ! قل : واقلة حزناه ! لوكنت حزيناً ما هَنَّأك عيش .

وقالت له مرة : نعم الرجل أنت لولا رغبتك فى الدنيا ! قال : فيماذا رغبتُ ؟ قالت : فى الحديث .

ومرضت فقال لها عوادها : ماسبب علتك ؟ قالت : نظرت بقلبى إلى الجنة فآذانى . فتبت أن لا أعود .

ومن كراماتها : أنها زرعت زرعاً فوقع عليه الجراد فقالت : إلهى ! رزق تكفلت به ، فإن شئت فأطعمه أعداءك وأولياءك . فطار الجراد كأنه لم يكن .

وحجت على بعير فمات قبل بلوغها لمنزلها. فسألت الله أن يحييه. فركبت حتى وصل إلى باب دارها فخر ميتاً.

وقالت لسفيان الثورى : ما تعدون السخاء فيكم ؟ قال أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله ، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه . قالت : أخطأتم . قال لها : فما السخاء عندكن ؟ قالت : أن تعبده حباً له لا طلب جزاء ولا مكافأة .

وضرب رأسها ركن جدار ، فأدماه ، فلم تلتفت لذلك . فقيل لها : ماتحسين بالألم ؟ قالت : شغلى بموافقة مراده فيما جرى شغلنى عن الإحساس بما ترون .

وسمعت قارئاً يقرأ : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون[٢] » فقالت : مساكين أهل الجنــة فى شغل هم وأزواجهم ! وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة

---

(١) سورة التوبة : ١١٩ . (٢) سورة يس : ٥٥ .

[١٠٦ ا] وقال: إنها ماعرفت ، و إنها المسكينة: فإنما شغلهم إنما هو بالله. قال: وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض فى حق نفوسهم؛ إنهم منزهون عن ذلك . لكنه مع ذلك بالغ فى موضع آخر فى مدحها وقال : إنها فى رتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى ، فقال : السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين : طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق،فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلى بينهم و بين الله ؛ فهؤلاء إذا سارعوا سابقوا إلى الخيرات ، لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفة الأخرى جعلوا فى نفوسهم أنهم لاسبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول بين أيديهم . هكذا قال ، ثم قال : والحالة الأولى هى حالة عبد القادر وأبى السعود بن شبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم — انتهى .

قال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها فى النوم تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمَّرة بمناديل من نور .

ماتت سنة ثمانين ومائة ، وقيل غير ذلك .

ورأتها خادمتها فقالت : مرينى بأمرٍ أتقرب به إلى الله ! قالت : عليك بكثرة ذكره ، أوشك أن تغتبطى به فى قبرك .

وقد أفرد ابن الجوزى لمناقبها وكلامها مؤلفاً حافلاً .

رابعة بنت اسماعيل العدوية

ورابعة هذه بمثناة تحتية ، وهى شامية ؛ والتى قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية وهى بصرية[١] — فافترقا . كانت تقوم الليل كله وتقول : إذا عمل عبدٌ

(١) س : مصرية .

بطاعة الله أطلعه على مبادىء عمله فاشتغل بها دون الخلق . وقالت : ما سمعت أذاناً قط إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا ذقت حراً إلا ذكرت حر الحشر .

وكانت ترى الجنّ عياناً . وقالت : رأيت الحور العين فتسترّن منى بأكمامهن .

ورابعة هذه كانت زوجاً لابن أبى الحوارى . قال : قلت لها وقد قامت بليل : قد رأينا أبا سليمان[١] وتعبدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل . فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ إنما أقوم إذا نوديت .

قال : وجلست آكل ، وجلسَتْ تذكرنى . فقلت : دعينا يهنينا طعامنا . قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام . وقالت لى : أى أخى ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه على مساوى عمله ، فتشاغل به دون خلقه !

وكانت لها أحوال شتى : فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة الأنس ، ومرة الخوف .

وكانت تقول : إنى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، وإنى لأرى ذراعى قد سمن فأحزن .

وكان إذا أراد زوجها جماعها نهاراً ، قالت : أسألك بالله لا تفطرنى اليوم . وإذا أراد ليلا قالت : أسألك بالله إلا ما وهبتنى لله الليلة .

ومن كراماتها

أنها قالت : نحُّوا[٢] عنى الطشت ، فإنما عليه مكتوب : مات هارون الرشيد . فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم .

ودعاها زوجها يوماً فلم تجبه ؛ ثم بعد مدة أجابته وقالت : إنما منعنى أن أجيبك أن قلبى كان امتلأ فرحاً بالله ؛ فلم أقدر أن أجيبك .

ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتا ببيت المقدس . وقيل [١٠٧ ا] المدفونة هناك إنما هى الأولى .

(١) يقصد أبا سليمان الدارانى (٢) س : نحو عنى .

رياح بن عمرو القيسى

(١٠١ ب) صاحب المجد والفخر ؛ القانت لله فى السر والجهر . كان للدنيا قالياً ؛ ومنها هارباً ؛ وفى الآخرة راغباً ، ولها خاطباً ؛مطرحاً للكلف ، راقياً بهمته إلى أعلى الغرف .

وكان إذا دخل المسجد بكى ؛ وإذا دخل بيته بكى؛ وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرك فى مأتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا . واتخذ غُلا من حديد ، فإذا جَنَّه الليل وضعه فى عنقه وتضرع وبكى حتى يصبح .

وقال الحارث بن سعيد : أخذ رياح بيدى وقال : هلم نبكى على ممر الساعات . — ونحن على هذه الحال فخرجنا إلى المقابر . فلما نظرها صرخ ، فأغمى عليه ، فقعدت عند رأسه أبكى . فأفاق فقال : ما يبكيك ؟ قلت : ما أرى بك . قال : لنفسك فابك . ثم قال : وانفساه ! فغشى عليه وسقط .

ومن كلامه : شأن العاقل أن لا يجعل لبطنه على عقله سبيلا : فإن الدنيا أيام قلائل . وقال : إياكم والإكثار من اللحم ، فإنه يقسى القلب . وقال : تحويل جبل من مكانه أسهل من إزالة حب الرئاسة إذا استحكم . وقال : نحت الجبال بالأظفار أسهل من مخالفة الهوى إذا تمكن . وقال : رحم الله إخواناً زاروا قبور إخوانهم بقلوبهم وهم فى محاريبهم [١٠٢ ا] وقال : إذا قال رفيقك « قصعتى » فليس برفيق حتى يقول : قصعتنا . وقال : كما لا ينظر بصر الخفاش نور الشمس ، لا ينظر قلب محب الدنيا نور الحكمة .

وقال : عليك بمجالس الذكر وحسن الظن بمولاك ، وكفى بهما خيراً .

وقال : مما أوصى به الخضر عليه السلام موسى : إياك أن تتعلم العلم لغيرك

فلا تعمل به ، فيكون لغيرك نوره وعليك وزره . وقال : لا يبلغ رجل منزلة الصديقين حتى يدع زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام[١] ويأوى مزابل الكلاب . وكان أدمه الملح والخبز ؛ ويقول لنفسه : أمامك طعام العز والجاه والعرس فى الآخرة .

— ١٦ —

العطار : « تذكرة الأولياء » جـ ١ ص ٥٩ ـ ص ٧٣ نشرة نيكلسون

رابعة العدوية

إنها ذات الخدر الخاص ، المستورة بستر الإخلاص ، المتقدة بنار العشق والاشتياق ، المتحرقة إلى القرب والاحترام ، الفانية فى الوصال ، المقبولة عند الرجال ، كأنها مريم ثانية ، صافية صفية ، إنها رابعة العدوية — رحمة الله عليها .

فإن سألنى أحد : لم ذكرتها فى صف الرجال ؟ لقلت لهم : قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام : إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم . . . . الحديث . فالعبرة لا بالصورة ، بل بالنية كما قال عليه السلام : « يحشر الناس على نياتهم » . فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصديقة — رضى الله عنها — ثلث الدين ، فمن الجائز أن تتلقى فائدة دينية من إحدى خادماتها (أى رابعة) . إن المرأة التى تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال لا يمكن أن تسمى امرأة . ولقد قال عباسه الطوسى : إذا دعينا يوم القيامة : « يا رجال » فأول متقدم فى صف الرجال (أى الداخلين إلى الفردوس) سيكون مريم عليها السلام . وكان الحسن إذا لم يرها فى المجلس حاضرة ترك المجلس — ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال فى القداسة)

---

(١) ص : أيتاما .

أنه حيث يوجد الصوفية فلاتفريق بينهم فى وحدة الوجود (الإلهى)، ففى التوحيد ماذا يبقى من وجود «أنا أو أنت» ؟ وإذن كيف يكون ثمت امرأة ورجل ؟ كذلك قال أبو على الفارمذى رضى الله عنــه : إن النبوة عين العزة والرفعة ؛ فليس فيها سمو وانحطاط . ولا ريب فى أن الولاية من هذا النوع .

لقد كانت رابعة فريدة فى معاملتها (مع الله) وفى معرفتها ، وكانت معتبرة فى جملة كبار عصرها ، وكانت حجة قاطعة عند معاصريها . وفى الليلة التى أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكن فى بيت أهلها شىء ، لأن أباها كان فقيراً فلم يكن عنده قطرة من سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمة نور ولا خرق للف الوليد ، وكان له ثلاث بنات فسميت «رابعة» لأنها رابعتهن . فقالت له امرأته : اذهب للجيران وائت بقطرة من الزيت حتى يضىء القنديل، ولـكنه كان قد عاهد نفسه على ألا يطلب من الناس شيئاً ، لأنه لو طلب شيئاً ما أعطوه . ومع هذا ذهب إلى الجارة وطرق الباب ، ثم عاد إلى زوجه وقال إنه لم يفتح له . فبكت . وفى ذلك الوقت أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبى عليه السلام فى منامه وقال له الرسول : لاعليكُ ، لأن هذه البنت التى ولدت هى سيدة ؛ إن سبعين ألفاً من أمتى ليرجون شفاعتها. وقال له : اذهب غداً لعيسى زاذان أمير البصرة واكتب له ورقة وقل له : إنك تصلى مائة صلاة وفى ليلة الجمعة أربعمائة ، ولـكن فى يوم الجمعة الأخير نسيتنى ، فادفع كفارة أربعمائة دينار حلال لهذا الشخص . فلما أفاق والد رابعة من نومه كتب الرسالة وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير . فلما قرأها الأميرقال: أعطوا ألفى دينار للدراويش وأربعمائة للشيخ وقولوا له أن يأتى إلىّ لأراه ؛ كلاّ بل لا أرى من الموافق أن يأتى إلىّ ، بلى سأذهب إليه أنا ، وأحنى لحيتى على أعتابه وأمسحها بها ، وأطلب من الله كل ما تريده ، وأشترى من فاخر الثياب وكل شىء تريده (الفتاة) .

فلما كبرت وتوفيت أمها وأبوها حدث فى البصرة قحط ، وتفرقت أخواتها. فلما خرجت رابعة تهيم على وجهها رآها ظالم وباعها بستة دراهم ، ومن اشتراها أثقل عليها العمل . وذات يوم جاء رجل غريب فهربت وسارت فى طريقها ، ثم ارتمت على التراب وقالت : يا ربى ! أنا غريبة ويتيمة وأسيرة وقد صرت عبدة ، لكن غمى الكبير هو أن أعرف أراض عنى أنت أم غير راض ؟ فسمعت صوتاً يقول لها : «لاتحزنى ، لأنه فى يوم الحساب [٦١] المقربون فى السماء ينظرون إليك ويحسدونك على ما أنت فيه » .

وبعد أن سمعت هذا الصوت ذهبت إلى بيت سيدها ، وصارت تصوم وتخدم كل يوم ، سيدها وتصلى لربها ، ساهرة على قدميها . وذات ليلة استيقظ سيدها من النوم ونظر من خوخة فى الباب، فرأى رابعة ساجدة وهى تقول : «إلهى! أنت تعرف أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عينى فى خدمة عتبتك . ولو كان الأمر بيدى لما توقفت ساعة عن خدمتك ، لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق». وبينما كانت لاتزال تصلى ، شاهد قنديلا فوق رأسها ، معلقاً ، بدون سلسلة ، وكان النور يملأ البيت كله . فلما رأى سيدها هذا النور العجيب فزع ونهض ثم عاد إلى مكانه وظل يفكر حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وحدثها بلطف وأطلق سراحها قائلا :

يا رابعة ! لقد أعتقتك حُرة ، فإذا شئت بقيت هنا وسنكون جميعاً فى خدمتك؛ وإذا لم تشائى اذهبي أنى شئت. فودعته رابعة وارتحلت وانقطعت للتقوى والعبادة.

ويقال إن رابعة كانت تصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ؛ وكانت تتردد على الحسن البصرى . وفى رواية أخرى أنها كانت تضرب على الناى (وگروهى گونيد در مطربى أفتاد) مدة ما ، ثم تابت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة .

وذات يوم ارتحلت إلى الكعبة وكان لها حمار حملته متاعها . فنفق الحمار ،

فقال من بالقافلة : « سنحمل متاعك على دوابنا . — فقالت رابعة : ما كان اعتمادى عليكم حينما أتيت ، بل ثقتى بالله تعالى . فارحلوا إذن » . فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله قائلة : « إلهى ! أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، وها أنت ذا تدع حمارى ينفق فى الصحراء وتتركنى فى الخلاء وحيدة ! » فما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة.

ويقال إنها كانت فى طريقها إلى الكعبة ذات يوم ، فبقيت وحدها فى الصحراء . وقالت : « إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة . أنا ابنة والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! » فناداها حينئذ صوت من عند الله تعالى يقول : « يا رابعة ، أتعملين وحدك ما يقتضى دمّ الدنيا كلها ؟ لما أراد موسى أن يشاهد وجهنا ، لم نلق إلا ذرة من نورنا على جبل فخر صَعِقاً . »

ويروى مرة أخرى أنه لما كانت رابعة بسبيل الحج رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء . فقالت رابعة : [٦٢] « لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشأ أن تنظر إليها .

وكان إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين . وكان يقول : « غيرى يسلك هذه الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكها على رأسى » . وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجدها فى مكانها . فقال نائحاً : « وا أسفاه ! أصرت أعمى حتى لا أرى الكعبة ؟ » فسمع صوتاً يقول : « يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة ». فتأثر إبراهيم ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها . وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : « أى رابعة ! هكذا قال لها ، ما أجل عملك وما الضجة التى تحدثينها فى الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة » . فأجابته رابعة :

يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت فى الدنيا بأن أمضيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان ، لأن الكل يقولون : إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلى ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! قد أمضيت أربعين سنة فى اختراق هذه الصحراء . فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر » ؛ وبكت طويلا . وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة . وفى وثبة من قلبها صاحت : « إلهى وعدت بجزاءين لشيئين : القيام بالحج ، والصبر على الشدائد . فإذا لم يكن حجى صحيحاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندى ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ »

وفى السنة التالية قالت : « إذا كانت الكعبة قد أقبلتْ إلىّ فى العام الفائت أنا التى سأقبل عليها هذا العام ». وروى الشيخ أبو على الفارمذى أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة ، فى سبعة أعوام . فلما بلغتها سمعت صوتاً يقول لها : «ماذا تريدين يارابعة ؟ إذا كنت تريديننى فسأتجلى لك بكل جلالى فتذوبين تواً كما يذوب الماء — فأجابت : إلهى ! ليس لى من الطاقة ما يبلغنى هذه المرتبة . ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى» . فقال الصوت : «أى رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها فى طريق الأولياء ، لكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلا قيد الشعرة فقد يحدث أن يفسد أمرهم فى الحال وينحو عن الغاية . أما أنت ، فلا تزالين فى داخل السبعين حجاباً أو مقاماً . فطالما لم تخرجي من تحتها وتضعى قدمك فى طريقنا ، لن تقدرى على الحديث عن الفقر — فقال صوت : «يارابعة! أنظرى إلى الأعلى»! فلما نظرت إلى الأعلى، رأت بحراً من الدم معلقاً فى الهواء وصاح لها صوت : يارابعة! إن هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا. ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثر فى هذا العالم أو فى الآخرة — فقالت رابعة : إلهى ! دعنى أرى مثلا على درجة السعادة التى

يصل إليها هؤلاء العشاق » . فما أتمت هذه العبارة حتى أتاها الحيض وصارت غير طاهرة . وفى نفس الوقت ناداها صوت يقول : « إن المرتبة الأولى التى يبلغها العشاق يمثلها تماماً إنسان تقلب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللبن، ولما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه » . فلما يئست رابعة قالت : « إلهى ! لاتدعنى كى أبقى فى بيتى ، ولاتريد أن تقبلنى فى بيتك ؛ فإما أن تدعنى أقيم هادئة فى بيتى بالبصرة ، أو اسمح لى أن أدخل الكعبة ، وهى منزلك . لقد فتشت عنك قبل أن أحنى رأسى أمام الكعبة؛ دعنى إذن أذهب فلست جديرة بدخول بيتك » . ثم عادت إلى البصرة ؛ وأقامت فى خلوتها وانقطعت بكامل نفسها للعبادة .

ويروى أن عالمين ذهبا لزيارة رابعة ؛ وكانا جائعين ، فقدمت لهما رغيفين كانا عندها . وفى تلك اللحظة جاء شيخ يسألها على الباب ، فقدمت إليه الرغيفين . فدهش العالمان وجلسا يتأملان ما جرى . فشاهدا خادمة تحمل مفرشاً من الخبز وضعته أمام رابعة وقالت « إن سيدتى فى خدمتك » . فلما عدت رابعة الأرغفة وجدتها ثمانية عشر . فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش وقالت : « خذيها واذهبى ؛ لقد أخطأت العدد . — فقالت الخادمة : كلا لم أخطىء — فقالت رابعة : كلا، بل ثمت خطأ. فأخذت الخادمة المفرش وذهبت إلى سيدتها ، وروت لها كل ماحدث . فوضعت السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرغفة وأرسلتها . فأحصت رابعة عددها فوجدته عشرين ، وضعتها أمام ضيوفها من العلماء. فلما فرغا من الطعام سألاها السر فيما حدث . فأجابت رابعة : «لما وصلتم عرفت أنكم جائعون فقلت لنفسى: ليس عندى إلا القليل. وفى تلك اللحظة جاء السائل الذى أعطيته الرغيفين ثم دعوت هذه الدعوة : إلهى! لقد قلت : «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها[1]»،

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .

وأنا من أجلك أعطيت رغيفين ، فأعطانى عشرة من كل واحد. فلما جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيفاً قلت لنفسى : إما أن يكون أحد الناس قد أخذ منها اثنين ، و إما ألا تكون لنا . ورددتها . فلما أعادتها بزيادة رغيفين ، فهمت أن هذه لنا » .

وذات ليلة كانت رابعة تتهجد ، فدخلت قصبة فى عينها دون أن تشعر بها لأن عشقها لله كان متأصلا فى أعماق قلبها !

ويحكى كذلك أن لصاً دخل بيت رابعة ، وسرق خمارها ، ولكنه لم يجد مخرجاً ؛ لكن لم يكد يدع الخمار فى مكانه حتى وجد المخرج . فأخذ الخمار من جديد ، لكن السبيل أغلق عليه . وفعل هذا سبع مرات : يأخذ الخمار ولا يجد المخرج ، إلا إذا أعاده إلى مكانه . هنالك ناداه صوت يقول : « يالص ! لاجدوى فى محاولاتك ، فمنذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهر عليها ولانسمح بدخول إبليس فى خلوتها . وأنت أيها اللص ! تريد أن تسرق خمارها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقى أنه حينما يكون أحد أحبابنا غارقاً فى النوم ، هناك صديق يسهر على أمره » .

كما يروى أن خادمة رابعة كانت تهيىء طعاماً بالزيت لسيدتها . فلم يكن عندها بصل ، فقالت لها: « سأسأل جارتنا وأعود » — فقالت رابعة : منذ أربعين سنة وقد عاهدت الله على ألا أسأل أحداً شيئاً غيره . فإذا لم يكن ثمت بصل ، فلا ضير » . وفى الحال تبدى طائر يحمل بصلا فقشره وقطعه قطعاً وألقى به فى المقلاة فلم تأكل رابعة من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، ثم قالت : « يجب على المرء ألا يغتر بحيل الشيطان » .

و يروى أيضاً أن رابعة صعدت جبلا فأقبلت حولها كل الغزلان الموجودة ؛ و بقيت آمنة كل الأمان . وفجأة جاء الحسن البصرى ففرت كل الغزلان ، فقال لها : « يا رابعة ! لماذا فرت كل الغزلان منى ، ولم تفر منك أنت ؟ فسألته : ماذا

أكلت اليوم يا حسن ؟ — أكلت طعاماً طهى بقطعة زيت — فقالت رابعة : يا من تأكل من دهنها كيف تريد ألا تفر منك ؟ »

ويحكى أن الحسن البصرى رأى رابعة جالسة على شاطىء الفرات فألقى على الماء سجادته ووقف عليها وقال : يا رابعة ! تعالى نصلى ركعتين على الماء — فقالت : سيدى ! أهى أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة ؟ أظهر لنا شيئاً لا يستطيع جمهور الناس أن يفعلوه » . قالت هذا وألقت سجادتها فى الهواء وصعدت عليها وصاحت : « تعالَ يا حسن ! نحن هنا فى مكان آمن وأبعد عن عيون الناس » . وقالت تعزية للحسن : « سيدى ! ما فعلت أنت يستطيع السمك أن يفعله ، وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله . المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما » .

ويروى أن الحسن البصرى قال : « بقيت ليلة ويوماً عند رابعة نتحدث عن الطريق الروحى وأسرار الحق بحرارة بلغت حداً نسينا معه أننى رجل وأنها امرأة . فلما انتهينا من هذه المناقشة ، شعرت بأننى لم أكن إلا فقيراً ، بينما هى غنية بالإخلاص » .

ومرة أخرى ذهب الحسن البصرى وبعض أصحابه إلى رابعة . وكان الوقت ليلاً ، فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا . هنالك وضعت رابعة أطراف أصابعها فى فمها ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور كأنه نور مصباح . فإن سأل أحد كيف حدثت هـذه الكرامة فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى . فإذا قيل لك إن موسى — عليه السلام — كان نبياً وأن رابعة لم تكن نبية ، فأجب : إن من ينفذ الأوامر التى أتى بها الأنبياء يشارك فى قدرتهم على الإتيان بالمعجزات ؛ فإذا كان للأنبياء معجزات ، فإن للأولياء كرامات . وهذه حقيقة يؤيدها حديث الرسول عليه السلام حين قال : « من رد دانقاً — وهو سدس الدرهم —

من الحرام ، فقد نال درجة النبوة[١] » ، أو « الرؤيا الصادقة جزء من النبوة » [٦٦] .

ويحكى أن رابعة أرسلت إلى الحسن البصرى ثلاثة أشياء : قطعة شمع وإبرة وشعرة وأمرت الرسول أن يقول له : يا حسن ! اشتعل كالشمع وأضىء للناس ؛ وابدأ بأن تكون متجرداً ثم اعمل ؛ فإن فعلت هذين ، صِرْ نحيلا كالشعرة إذا أردت ألا يذهب جهدك سدى » .

وسألها الحسن البصرى هل تتزوجين : فأجابته : « الزواج ضرورى لمن له الخيار ؛ أما أنا فلا خيار لى فى نفسى ؛ إنى لربى وفى ظل أوامره ، ولا قيمة لشخصى . — فقال الحسن : فكيف بلغت هذه الدرجة ؟ — بفنائى بالكلية — فقال الحسن : أنت تعرفين لماذا ؛ أما نحن فلا يوجد لنا هذا » . ثم أضاف : « أى رابعة ! أخبرينى بشىء مما ألهمتِه — فأجابت رابعة : ذهبت اليوم إلى السوق ومعى حزمتان من الحبال بعتها بمثقالين من الذهب حتى أحصل على طعام . وأخذت إحدى القطعتين فى كلتا اليدين مخافة أنى لو أمسكت بهما معاً لجعلانى أضل الطريق القويم » . وقال لها الحسن أيضاً : « لو كنت فى الجنة بعيداً قدر نفس من وجه الله لبكيت إلى حد يثير شفقة الآخرين على . — فقالت رابعة ! حسناً ؛ لكن من يهمل فى هذه الدنيا أو يسبح بحمد الله لحظة وهو ينوح ويبكى فإن هذا آية على أنه فى الآخرة سيكون على الحال التى وصفتها » .

وسئلت : « لماذا لا تتزوجين ؟ — فأجابت : هناك ثلاثة أشياء تسبب الهمّ عندى ؛ فإذا كان من يخلصنى منها تزوجت . — وما هى ؟ — فأجابت : أولها : هل إذا أنا مُتُّ أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً ؟ والثانى إذا ما كنت سأعطى كتابى بيمينى يوم القيامة . والثالث إذا جاء يوم البعث وأخذ أصحاب الميمنة إلى الجنة وأصحاب المشأمة إلى السعير ، فمن أى الفريقين سأكون ؟ — .

(١) بنصه العربى فى الأصل .

فقالوا جميعاً : لسنا نعرف شيئاً عما سألته . — فقالت : إذا كان الأمر كذلك ، وأنا فى قلق من هذه الأمور ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! »

وسئلت : « من أين أتيت ؟ — من العالم الآخر — وإلى أين تذهبين ؟— إلى العالم الآخر — وماذا تفعلين فى هــذه الدنيا ؟ — أعبث بها : — وكيف تعبثين بها ؟ — آكل من خبزها وأعمل عمل الآخرة » . وسئلت أيضاً : «إنك بارعة فى الـكلام ، أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟ — فقالت : إنى حارسة رباط فعلا ، لأنى لا أدع شيئاً يخرج مما فى داخلى ، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج ».

وسئلت : «أى رابعة ! أتحبين الله تعالى ؟ — أوه ! نعم أحبه حقاً. — وهل تكرهين الشيطان ؟ — إن حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان . »

ويروى أن رابعة رأت الرسول — عليه السلام — فى المنام ، وهو يسلم عليها ويقول : « يا رابعة ! أتحبيننى ؟ — فقالت : يا رسول الله ! وهل ثمت من لا يحبك ؟ لـكن حبى لله تعالى قد ملأ قلبى إلى حد لم يجعل هنـاك مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته . »

وسئلت رابعة : « أترين من تعبـدينه ؟ — فأجابت : لو كنت لا أراه لما عبدته » . ويروى أنها كانت دائمة البكاء ، فسئلت لـماذا كل هذا البكاء ، فأجابت : « أخشى ألا ينـادى صوت فى اللحظة الأخيرة ويقول : إن رابعة ليست جديرة بالمثول فى حضرتنا » . وأُلقِىَ عليها هذا السؤال : « أإذا تاب أحد من عباد الله أتقبل توبته ؟ — إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة ، فكيف يتوب ؟ وإذا تاب عليه ، فلا شك فى أنه سيتقبل توبته » . وقالت أيضاً : « ليس من المستطاع أن تميز بالنظر المقامات المختلفة فى الطريق إلى الله ، ولا أن تصل إليه باللسان . فلتجعل قلبك مستيقظا . فإذا استيقظ ، رأيت بعيونه الطريق وكان فى وسعك بلوغ المقام » . وقالت أيض: «إن ثمرة العلم الروحى هو أن تصرف وجهك

عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هى معرفة الله » .

ويحكى أن رابعة رأت رجلا عصب رأسه فسألته: « لماذا عصبت رأسك — فأجاب : لأنه يؤلمنى — فقالت رابعة : ما عمرك . — ثلاثون عاماً . — وخلال هذه الأعوام الثلاثين هل كنت فى غالب أحوالك سليما أو مريضاً ؟ — كنت فى الغالب سليما . — ولما كنت سليما ، هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة ، حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألم يوم وتعصب رأسك هكذا ؟ ! »

ويحكى أن رابعة كانت تعتكف إبان الصيف فى بيت منعزل لا تفارقه . فقالت لها خادمتها : « سيدتى ! غادرى هذا البيت وتعالى تأملى آثار قدرة الله تعالى . — فأجابتها : بل ادخلى أنت وتعالى تأملى القدرة فى نفسها » وأضافت : « إن مهمتى أنا هى أن أتأمل القدرة » .

ويحكى أن رابعة صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً ، ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة . وفى الليلة الثامنة قالت لها نفسها (الأمارة بالسوء) وهى تنوح : «يارابعة ! إلى متى تعذبيننى هكذا دون ماهوادة؟ » وخلال هذا الحديث النفسى سمع صوت قرع على الباب . ففتحت رابعة ، فكان رجل أحضر لها طعاماً فى كأس . فأخذته رابعة ووضعته فى البيت ؛ فلما تركته لإشعال المصباح أتى قط وأكل كل ما فى الكأس . فلما عادت رابعة ورأت ما حدث قالت : «سأبحث عن ماء أفطر به » فلما ذهبت للحصول على ماء انطفأ المصباح . فعادت ورفعت الجرة للشرب ، لكنها سقطت من يديها وانكسرت . فزفرت رابعة زفرة كاد البيت أن يحترق منها وصرخت: «إلهى!ماذا أردت بهذه المسكينة!» فسمعت صوتاً يقول : « يارابعة ! إذا شئت أعطيناك الدنيا بأسرها ؛ لكن يجب من أجل هذا أن ننزع الحب الذى فى قلبك لنا، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً . فقالت رابعة : لما سمعتُ أنى أخاطب على هذا النحو ، نزعت من قلبى كل

تعلق بأمور الدنيا وصرفتُ نظرى عن كل الدنيويات. وها أنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلِّ فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتى ، ولم أمل من تكرار هذا القول : إلهى! أغرقنى فى حبك حتى لايشغلنى شىء عنك!»

ويحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما من ألم تشكين منه ؟ فأجابت : « وا أسفاه ! إن العلة التى أشكو منها من نوع لايستطيع طبيب أن يشفيه ؛ ودواؤها الوحيد هو رؤية الله . وما يعيننى على احتمال هذه العلة هو رجائى فى أن أبلغ رغباتى فى العالم الآخر » .

ويحكى أنه أتى إلى رابعة كثيرمن الصالحين ، فسألت أحدهم: «وأنت ، لماذا تعبد الله تعالى ؟ — فأجاب : لأنى أخاف النار — وقال آخر : وأنا أعبده خوفاً من النار وطمعاً فى الجنة — فقالت رابعة : ما أسوأ العبد الذى يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار » ، وأضافت : « فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار ، أفلا تعبد الله تعالى ؟ » — فسألوها : « وأنت ، لماذا تعبدين الله ؟ — فأجابت : أعبده لذاته . أفلا يكفينى نعمة منه أنه يأمرنى بعبادته ؟»

ويروى كذلك أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة لرابعة ؛ فلما رأوها عليها أسمال ممزقة ، قالوا : « أى رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة — فأجابت : إنى أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد ، وماهى إلا عارية فى يد من هى فى يده — فقالوا: هذه امرأة نبيلة العواطف» . ثم سألوها : « إن الله تعالى قد توج رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومنطقهم بها ؛ ولكن هذه المقامات لم تظفر بها امرأة . فكيف بلغت هذه المرتبة ؟ — فأجابت : ما قلتموه صحيح ، لكن الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأة . ولم تصر امرأةٌ فاسقة لامرأة أخرى» .

ويروى أن رابعة مرضت . فلما سئلت ماذا أصابها أجابت : « فى هذه الليلة

عنـد الفجر اشتاق قلبي إلى الجنـــة ، فأصابنى الله بهـذه الحنة حتى يرغمنى على الاحترام » . وروى الحسن البصرى ، قال : « ذهبت يوماً إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها، فرأيت تاجراً يبكى. فسألته : مايبكيك ؟ فأجاب : أتيت إلى رابعة بهذا الكيس من الذهب . وأخشى ألا تقبله . فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلها تفعل. — فدخلت على رابعة، هكذا قال الحسن، ولم أكد أخبرها بهذا الذى قاله التاجر حتى نظرت إلى بمؤخر عينها وقالت : إنك أيها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطى الطعام لمن لا يركعون له ، فكيف لا يعطيه من يغلى قلبه حباً لجلاله (هو يرزق من يسبه ، أفلا يرزق من يحبه[1]) وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهى عن كل مخلوق . والآن ! فكيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أوحرام ؟! ثم قالت : ذات يوم وضع فى المصباح زيت من بيت السلطان. ورفوت ثوبى الممزق على ضوء هذا المصباح ، فظل قلبى طوال أيام مغموراً بالظلمة ولم يضىء إلا حينما شققت الثوب الذى رفوته ، فاعتذر لهذا التاجر ودعه يذهب » .

وذات مرة جاء تاجر غنى لزيارة رابعة فرأى بيتها وهو يتداعى، فأعطاها ألف درهم من الذهب وأهداها بيتاً جيداً. فذهبت رابعة إلى البيت ، ولم تكد تستقر فيه حتى استغرقت فى تأمل الصور التى فيه ؛ فقالت فى الحال وهى تعيــد إلى التاجر الألف درهم من الذهب : «أخشى أن يتعلق قلبى بهذا البيت فلا يعود فى استطاعتى أن أشغل نفسى بعمل الآخرة . إن كل رغبتى فى أن أفرغ لعبادة الله تعالى » .

ويحكى أن عبد الواحد بن زيد ؟ وسفيان الثورى ذهبا يوماً لزيارة رابعة . فلما أبصراها أخذهما الاجلال لها فأرتج عليهما ، وأخيراً قال سفيان : « أى رابعة ! ادعى الله حتى يخفف آلامك . — فسألته : ياسفيان الثورى ! من بعث إلىّ بهذه الآلام ؟ — فأجاب : إنه الله تعالى .— فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يمتحننى

---

(١) فى الأصل بالعربية .

بهذه المحنة ، فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته ؟ » وقال لها سفيان أيضاً : « أى رابعة ! ماذا يود قلبك ؟ — فأجابت : ياسفيان ! وأنت الرجل العليم ، كيف تنطق بهذه العبارات ؟ إن الله تعالى يعلم أن قلبي يريد منذ اثنتى عشر سنة بلحاً ناضجاً ، وهو ليس بنادر فى البصرة . ومع هذا فقد بقيت حتى اليوم لا آكل منه . لست إلا عبدة وليس لى أن أنصرف وفق أهواء قلبي ، لأنى إذا أردت ولم يرد هو (= الله) لكان هذا منى جحوداً — فقال سفيان : ليكن ! لست بقادر على أن أحدثك فى شئونك ؛ لكن حدثينى أنت عن شئونى — فقالت رابعة : لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنت رجلا لا غبار عليك . قال سفيان : فصرخت باكياً : إلهى ! ليتك ترضى عنى ! فقالت رابعة : ألا تخجل من أن تقول لله : ليتك ترضى عنى — دون أن تفعل شيئاً لرضاه ؟ »

ويروى أن مالك بن دينار قال : ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة ، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومخدتها من اللبن . فقلت وقلبي يغلى : يارابعة ! لى أصدقاء أغنياء : فإن سمحت لى سألتهم أن يعطونى شيئاً من أجلك . — فأجابت : « لقد أسأت القول يا مالك ؛ إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم . أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته ، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا » .

ويحكى أن مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيق البلخى ذهبوا لزيارة رابعة فتحدثوا عن الإخلاص ، فقال الحسن : « ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه — فقالت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخى : « ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » . فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه » . — فصاحت رابعة : هنالك أفضل من هذا . فقالوا لها : تكلمى أنت إذن ! فقالت رابعة : « ليس

بصادق فى دعواه من لم ينسَ الضرب فى مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف» .

وكان أحد علماء البصرة يزور رابعة فأنشأ يتحدث عن شرور هـذه الدنيا فقالت رابعة : « آه ! لا بد أنك تحب هـذه الدنيا . فإن من أحب شيئاً أكثر ذكره . فمن يريد أن يشترى ثياباً ، يتحدث عنها كثيراً . فلو أنك تجردت تماماً عن هذه الدنيا فماذا يهمك من خيراتها أو شرورها ؟ »

ويروى أن الحسن البصرى قال : « عنـد صلاة الظهر ذهبت إلى رابعة ؛ وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم ، فلما بدأنا الحديث عن المعرفة (= معرفة الله) قالت : لا حديث خير من هذا ؛ والأفضل أن أستمر فيه على أن أطهى اللحم ؛ ولم تنفخ فى النار تحت القدر . فلما فرغنا من صلاة العشاء ، أحضرت رابعة ماء وخبزاً جافاً . ثم أفرغت ما فى القدر ، فوجد أن اللحم الذى كان فيه قد طهى بقدرة الله . فأكلنا من هذا وكان له طعم لم تتذوق مثله قط » .

وقال سفيان الثورى : كنت عند رابعة ذات ليـلة . فصلت حتى أشرق الفجر . وصليت أنا كذلك . وفى الصباح قالت : « يجب أن نصوم اليوم شكراً على هذه الصلوات التى أقمناها هذه الليلة . » ويروى أنها كانت تقول وهى لهيفة القلب : « إلهى ! إن بعثت بى يوم البعث إلى النار لأذعت سراً يبعد النار عنى بألف سنة . — وكانت تقول : إلهى ! كل ماقدرته لى من خير فى هذه الدنيـا أعطه لأعدائك ؛ وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك . — وكانت تقول : إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارها ، أو طمعاً فى الجنة فحرمها على ، وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » .

ويروى أن رابعة قالت : «إلهى ! إذا بعثت بى إلى النار يوم البعث فسأصرخ

نائحة : «ربى ! يا من أحبه كل هذا الحب! أهكذا تعامل من يحبونك ؟» فسمعت صوتاً يقول: «يا رابعة ! لا تظنى بنا ظن السوء، لأننا سنعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تستطيعى أن تحدثينا عن أسرارنا » .

ويروى أن رابعة قالت ذات ليلة : « إلهى ! حينما أصلى ، اصْرِفْ عن قلبى كل وساوس الشيطان ، أو بمنـك وكرمك تقبل الصلوات التى تخالطها تلك الوساوس » .

وحينما حضرتها الوفاة جلس حولها نفر كبير من الصالحين ، فقالت لهم : انهضوا واخرجوا ، ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى . فنهضوا جميعاً وخرجوا . فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تقول الشهادة . فلما تلفظت النفس الأخير ، تجمع أولئك الصالحون وغسلوها وصلوا عليها صلاة الموتى ودفنوها فى مقرها الأخير .

ورؤيت رابعة فى المنام فسئلت بماذا أجابت منكر ونكير ، فقالت : «أتانى منكر ونكير فسألانى : مَنْ ربك ؟ فأجبت : أيها الملـكان! اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى : أنت تأمر بسؤالى ، أنا المرأة العجوز ، بين هذا العدد من عبيدك ، أنا التى لم أعرف غيرك ! أفنسيتك مرة حتى تبعث إلىّ بمنكر ونكير يسألاننى؟ »

وقد زار محمد بن أسلم[١] الطوسى ونعمى الطرطوسى قبر رابعة فقالا : « يا رابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة ، فأين أنت الآن ! » فصاح صوت من قبرها يقول : « حبذا ما حدث لى ! ما فعلت هو ما كان علىّ أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى » والله وحده أعلم .

---

(١) راجع عنه « حلية الأولياء » ج ٩ ص ٢٣٨ — ص ٢٥٣ .

* الترجمة عن الفارسية وعن الترجمة الفرنسية لبافيه دى كورتى :
Le Mémorial des Saints traduit sur le manuscrit ouigour de la Bibliothèque Nationale, par A. Pavet de Courteille, Paris 1889, t. I, p. 54-69.

فريد الدين العطار : « إلهي نامه » بتصحيح هـ . ريتر ،
استانبول سنة ١٩٤٠ ، النشريات الإسلامية ، رقم ١٢ :

(١)

ص ١٢٠ — ص ١٢١ :

حكاية الحسن البصرى مع رابعة وقطيع من الحيوان

خرج الحسن ذات يوم من البصرة ، وأقبل على رابعة فى الفلاة ، وكان قد اصطف من حولها سرب من الحيوان : غزلان وغير غزلان ، ما كادت تبصر الحسن قادماً من بعيد يسلك الدرب حتى فرّت جميعاً من أمام رابعة . شهد هذا الحسنُ فاستوقد الهم صدره ، ودبت له فى النفس عقارب الغيرة حيناً . هنالك التفت إلى رابعة وسألها أن تنبىء بصدق : لماذا فرّت هذه الظباء السائرة على الطريق هنالك لما أبصرتنى ، ولم تفرّ منك ؟ أَتُرَاها لا ترانى أهلا لها مثلك ؟ فأجابته رابعة سائلة إياه سراً : أى شىء أكلت ؟ فقال : «أكلت جذور بصل . لقد كان عندى ، أيتها الطيبة الخاطر ، بصل وقليل من الشحم ، فأرسلت فى دم القلب بضعة شحم منصهر ، هى تلك التى أكلتها فى تلك الساعة التى خرجت فيها» .

سمعت رابعة منه هذا السر ، فصاحت عجباً بنبرة خشنة فيها صوت الرجولة : «لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين، فكيف لا تريد منها أن تفرّ منك ؟! آه ! لو كنت رجلا أزوماً خفيف الزاد مثل النملة لما يسّرت لديدان قبرك أن يكظها الطعام . لو كنت لا تأكل فى اليوم إلا تمرة واحدة ، لسلم تابوتك فى القبر من الديدان ، فهل تريد أن تكون أسير الديدان ؟ إن تمرة واحدة لهى خيرٌ لك من تسمين الدود ، وإلا صرت للدود ظهيراً ومعيناً فى طعامها وشرابها ؛ وما تملأ

معدتك إلا من أجل هذا ، لأنك صاحب مطبخ ومبرز . فإن لم تخلص قلبك من هذين الجحيمين ، ذهبت من جحيم إلى جحيم آخر ، بذهابك من المطابخ إلى المبرز . لقد خيل إليك أنك ، وأنت لا تصبر على الطعام لحظة ، قد نلت ربحاً كثيراً . لقد قيل لك : طهِّر روحك ! لكنك دائب على تعمير جسدك . ألا فلتكن لباطنك عليك حرمة أبداً . إنما أنت تتعبد فى الظاهر فحسب .

لقد قال رجل أشمل الروح فى نفسه: إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك.

(ب)

ص ١٥٩ — ص ١٦٠ :

حكاية رابعة رحمها الله

كانت رابعة (العدوية) صاحبة مقام ، ومع هذا فلم تكن تأكل طوال الأسبوع ، بل كانت خلاله لا تجاس ، إنما كانت فى شغل دائم بالصَّوم والصلاة . فإذا خُفِتَت من الجوع وانهارت ساقاها وسرى التكسر فى أعضائها ، تناولت مع طعامها كأساً حلوة مستورة الوجود .

وهكذا بقيت رابعة فى الألم والحسرة ، حتى اشتعل السراج فى المكان فجاءت قطة فجأة ، وكانت رابعة قد ألقت الكأس فى الطريق مقلوبة ، ومضت لإحضار الكوز ، حتى يفتح ذلك القلب الذى تكنفت يومه الأحزانُ

هنالك وقع الكوز من يدها فكسر ، وبقى الكبد ظمآن

فاشتعل ذلك الكبد من تأوه القلب

حتى قالت : صار العالم مشبوباً بالنار

هنالك صاحت ، وفى رأسها ألف دُوار ، : إلهى !

ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة ؟ !

لقد أوقعتنى فى التباث صريح .

ولكم تلقى بى فى حمأة الدم النجيع

فأتاها الخطاب : إن رُمْتِ الآن أن أرزقك من شهر إلى شهر قوتاً معلوماً ، (فعلتُ) . بيد أن هذا يخرج من قلبك حزن هذه السنوات الطوال . ففكرى !

فالوَله من أجلى

والدنيا المحتالة الغرارة لايجتمعان فى قلب واحد ، ولا فى مائة سنة

فإن شئت أن تكونى دائماً موالمة بى

فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة

ولن تنالى الوله حتى يكون لك هذا الأمر (أى ترك الدنيا)

فالوَلَه من أجل الله ليس مجاناً .

(جـ)

ص ٣٦١ ، تحت عنوان

حكاية أبى يزيد :

ولكن كلمة « مادام » . .

إذا أضاءت على امرأة عجوز حيناً ما ، ردتها مثل رابعة شابة الدنيا .

— ١٧ —

كتاب «الروض الفائق فى المواعظ والرقائق» للشيخ الحريفيش

(المتوفى سنة ٨٠١ هـ ، ١٣٩٨ م)

طبع المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م :

فى «المجلس السابع والعشرون فيما يجلو القلوب من القسوة ، بذكر أخبار النسوة» :

[ص ١١٧] . . . قال الله تعالى — وهو أصدق القائلين — : «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات (١)» ، وقال تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما (٢)» .

فقرَن الله — سبحانه وتعالى — ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما فى الرجال . وفى النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف ، وغير ذلك من الخصوصيات التى خَصَّهن الله تعالى بها كمن مَضَيْنَ منهن فى الصدر الأول مثل رابعة العدوية وشعوانة وريحانة وأم الخير وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات ، كما حكى عن رابعة العدوية — رحمها الله تعالى — أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سَطْح لها وشدت عليها دِرْعها وخِمَارها ثم قالت : « إلهى ! نارت النجومُ ، ونامت العيون ، وغلّقت الملوكُ أبوابها وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » ثم تُقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهى : هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعرى ! أقبِلتَ منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها علىّ فأعزىٰ ؟ فوعزّتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى . وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع فى قلبى من محبتك . ثم أنشدت :

يا سرورى ومنيتى وعمادى   وأنيسى وعُدّتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى   أنت لى مؤنسٌ وشوقك زادى
أنت لولاك ، يا حياتى وأنسى،   ما تشتّتُّ فى فسيح البلاد

(١) سورة الفتح : ٢٥ .   (٢) سورة الأحزاب : ٣٥ .

كم بدَتْ مِنَّةٌ وكم لك عندى … مِن عطاء ونعمـةٍ وأيادى
حبُّك الآن بغْيَتى ونعيمى … وجَلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ـ ما حييتُ ـ بَراحٌ … أنت منى مُمكَّنٌ فى السواد
إن تكن راضياً عَلَىَّ فإنى … يا مُنَى القلب ! قد بدا إسعادى

وقال سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلتُ : ياأستاذ ! شخصٌ قد أتى . فقال لى : انظر من هو ، فإنه لا يضع أحدٌ قدمه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرت فإذا هى امرأة ، فقلت : إنها امرأة . صِدّيقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلّم عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذُو النون واست من أهل التُّهم . فقالت : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها: ما حملك على الدخول فى هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل — قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ؟ ! . — فقال لها : صِفى لى المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارفٌ بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها ؟ ! فقال لها : للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبك حبين : حبَّ الهوى … وحباً لأنك أهلٌ لذا كا
فأما الذى هو حب الهوى … فذِكْرٌ شغلت به عن سوا كا
وأما الذى أنت أهلٌ له … فكشفك لى الُحجب حتى أرا كا
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى … ولكن لك الحمد فى ذا وذا كا

(آخر) :

يا حبيب القلب مالى سوا كا … فارحم ، اليوم ، مُذْنباً قد أتا كا
يا رجائى وراحتى وسرورى … قد أبى القلبُ أن يحب سوا كا

(وقيل) إنه لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسنُ البصرى فى الدخول

عليها هو وأصحابه فأذنت لهم وأرخت ستراً وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بعلك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عُدّتك ، فاختارى من هؤلاء الزهاد من شئتِ منهم ، فقالت : نعم ! حباً وكرامة ! من هو أعلمكم حتى أزوّجه نفسى ؟ قالوا : الحسن البصرى . فقالت له : إن أجبتنى عن أربع مسائل فأنا لك أهل . فقال لها : سَلى فأنا أجيبك إن وفقنى الله تعالى . قالت : ما يقول الفقيه العالم إذا أنا مُتُّ : هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله (١١٨) تعالى . قالت : فما يقول إن وُضِعْتُ فى القبر وسألنى منكر ونكير ، أفأقدر على جوابهما ، أم لا ؟ قال : وهذا أيضاً غيب . قالت : فإذا حُشر الناس فى القيامة وتطايرت الكتب فيعطى بعضَهم كتابه بيمينه ويعطى بعضَهم كتابَه بشماله — أفأعطى أنا كتابى بيمينى أم بشمالى ؟ قال : وهذا أيضاً غيب . قالتَ : فإذا نودى فى الخلائق : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضاً غيب ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل . فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا فى قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أنشدت :

راحتى ، يا إخوتى ، فى خلوتى ... وحبيبى دائماً فى حضرتى

لم أجد لى عن هواه عِوضاً ... وهواه فى البرايا محنتى

حيثما كنتُ أشاهِدُ حُسْنه ... فَهْوَ محرابى إليه قِبْلتى

إن أمُتْ وَجْداً وما ثمّ رضا ... واعَنائى فى الورى ! واشِقوتى!

يا طبيب القلب يا كُلَّ المنى ... جُدْ بوصلٍ منك يشفى مهجتى

يا سرورى وحياتى دائماً ... نشأتى منك وأيضاً نشوتى

قد هَجَرْتُ الخلق جمعاً أرتجى ... منك وَصْلاً ، فَهْوَ أقصى مُنْيَتى

— ١٨ —

« النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى » ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

جـ ١ ص ٣٣٠ س ٩ — س ١٣ :

فى كلامه عن سنة ١٣٥ : « . . . وفيها توفيت رابعة العدوية البصرية الزاهدة العابدة ، وكانت مولاة لآل عتيك ، وكان سفيان الثورى وأقرانه يتأدبون معها ؛ وكانت رابعة تصلّى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مُصَلّاها هجعة خفيفة حتى يُسْفِر الفجر ثم تثب إلى الصلاة وتقول : يا نفس ! كم تنامين ! و إلى كم لا تقومين ! يوشك أن تنامين (كذا) نومة لا تقومين منها إلا بصرخة » .

جـ ٢ ص ١٥ س ١٤ — س ١٥ :

فى كلامه عن سنة ١٥٠ : « . . . وفيها توفى عبد العزيز بن سليمان أبو محمد الراسبي من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة : كان عابداً زاهداً ، كانت رابعة تسميه سيد العابدين ؛ كان إذا ذكر القيامة والموت صرخ كما تصرُخ الشكلى و يصرُخ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع الميت والميتان من جوانب المسجد ؛ قاله أبو المُظَفَّر [1] فى « مرآة الزمان » .

جـ ٢ ص ١٠٠ س ١٣ — س ٢٤ :

فى كلامه عن سنة ١٨٠ : « الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة ، قال : وفيها توفى . . . ورابعة العدوية قلتُ : وقد تقدمَتْ وفاتُها فى قول غير الذهبى » .

— ١٩ —

« الكشكول » لمحمد بهاء الدين العاملى ، طبع بولاق سنة ١٢٨٨ ، ص ١٣٤ :

« قيل لرابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

(١) أى سبط ابن الجوزى .

وقيل لها يوماً : كيف شوقك إلى الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار .

ومن كلامها ، نفعنا الله بها : «ما ظهر من عملي فلا أعده شيئاً [(١)] » .

— ٢٠ —

أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ = سنة ١٣٩٨ م

« روض الرياحين في حكايات الصالحين »

القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ = سنة ١٩٠٦ م ، ص ١٠١ :

(ا) « الحكاية السابعة والثمانون بعد المائة » عن خادمة رابعة العدوية رضي الله عنها قالت :

كانت رابعة تصلّي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة في مُصَلّاها حتى يسفر الفجر ؛ فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فَزِعة : يا نفس ! إلى كم تنامين ؟ وإلى كم لاتقومين ؟ يوشك أن تنامى نومة لاتقومين منها إلا بصرخة يوم النشور .

قالت (أي خادمة رابعة) : وكان هذا دأبها إلى أن ماتت . فلما حضرتها الوفاة ، دعتني وقالت : لاتؤذني بموتى أحداً ، وكفّنيني في جُبّتي هذه — وكانت جبة من شَعَر تقوم فيها إذا هدأت العيون . قالت : فكفّناها بتلك الجبة وفي خمار صوف كانت تلبسه . فرأيتها في المنام عليها حُلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منهما قلت : يارابعة ! مافعلت بالجبة التي كفناك بها والخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نُزِع عني وأبدلت به هذا الذي ترينه ؛ وطُويت أكفاني وخُتِم عليها ورُفعتُ في عليين ليكون لي ثوابها يوم القيامة . فقلت لها :

---

(١) « قيل لرابعة العدوية : بم ترتجين أكثر ما ترتجين؟ فقالت : بيأسي من جل عملي» . « الكشكول » لمحمد بهاء الدين العاملي ، طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٦٣ س ٢ .

لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عند مارأيت مما أعدّ الله من كرامات الله عز وجل لأوليائه ! قالت : مُرِيني بأمرٍ أتقرب به إلى الله تعالى! فقالت : عليك بكثرة ذكره ؛ يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

(ب) « الحكاية الثامنة والثمانون بعد المائة » .

روى عن أحمد بن أبى الحوارى — رضى الله تعالى عنه — قال : كان لرابعة أحوال شتى — يعنى زوجته رابعة الشامية — قال : فمرّة يغلب عليها الحب ، ومرةً يغلب عليها الأُنس ، ومرةً [١٠٢] يغلب عليها الخوف . فسمعتها فى حال الخوف تقول :

حبيب ليس يعـــدله حبيبُ — وما لســـواه فى قلبى نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى — ولكنْ عن فؤادى لا يغيبُ

وسمعتها فى حال الأُنس تقول :

ولقد جعلتُك فى الفؤاد محدثى — وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منّى للجليس مؤانس — وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وسمعتها فى حال الخوف تقول :

وزادى قليـلٌ ما أراه مُبَلِّغى — ألازاد أبكى ، أم لطول مسافتى
أتحرقنى بالنـــار ياغاية المنى ؟! — فأين رجائى فيك أين مخافتى؟!

قال (أى أحمد بن أبى الحوارى) : وقلتُ لها وقد قامت بليل : ما رأينا من يقوم الليل كُلّه غيرك ! فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ ! إنما أقومُ إذا نوديت . قال : فجلستُ آكل فى وقت قيامها ، فجعلت تذكّرنى . فقلت لها : دعينا نَتَهَنَّ بطعامنا . فقالت : ليس أنا ولا أنت ممن يتنغّص عليه الطعام عند ذكر الآخرة .

وقالت : لست أحبك حبَّ الأزواج ، إنما أحبُّك حبَّ الإخوان .

وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كلها ياسيدى ! فما نضجت إلا بالتسبيح .

قال : وقالت لى اذهب فتزوج ، فتزوجت ثلاثاً . وكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقُوتِك إلى أهلك .

وقالت : ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون ، وربما رأيت الحور العين . رضى الله عنها ونفعنا بها .

قلتُ : الظاهرُ — والله أعلم — أن هذه الرؤية المذكورة كانت فى اليقظة ، فأما رؤية المنام فلغير الأولياء .

وهذه رابعة الشامية ، زوجة ابن أبى الحوارى كما ذكرناه ، وليست رابعة العدوية البصرية التى تقدمت . وبعض أهل العلم يقول : هذه الشامية رابعة بالياء المثناة المنقوطة بنقطتين من تحت ؛ وبعضهم يقول بنقطة واحدة كرابعة البصرية — رضى الله عنهما ونفع بهما أجمعين .

— ٢١ —

حكايات عن رابعة العدوية

(١) المخطوط رقم ١٢٤٢ عربى بالفاتيكان ، ورقة ٨٣ ا :

قيل : دخل لص على رابعة العدوية رحمها الله تعالى ليلا ، فنظر فى البيت يميناً وشمالا فلم يجد غير إبريق . فلما همّ بالخروج قالت له رابعة : يا هذا ! إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شىء . فقال : إنى لم أجد شيئاً . فقالت : يا مسكين ! توضأ بهذا الإبريق وادخل فى هذا المخدع ، وصلِّ ركعتين ، فإنك ما تخرج إلا بشىء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلى رفعت رابعةُ طرفها إلى السماء وقالت : سيدى ومولاى ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى ، وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فما برح يصلّى إلى آخر

الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول في سجوده معاتباً نفسه — شعراً — :

إذا ما قال لى ربى   أما استحييتَ تعصينى
وتخفى الذنب من خَلْقى   وبالعصيان تأتينى
فما قولى له لمّا   يعاتبنى ويقصينى ؟ !

فقالت له : حبيبي ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال ، بخير . وقفتُ بين يدى مولاى بِذُلّى وافتقارى ، فقَبِلَ عذرى وجَبَر كسرى ، وغفر لى الذنوب ، وبلغنى المطلوب .

ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كفيها إلى السماء وقالت : سيدى ومولاى ! هذا وقف ببابك ساعةً فقبلته ؛ وأنا مذ عرفتك بين يديك أتُراك قبلتنى ؟ فنوديتْ فى سرّها ، يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قربناه .

(ب) المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان ص ٧٧ ب ، ضمن رسالة تسمى « كتاب الصلاة » مجهولة المؤلف :

« وذكر أن رابعة العدوية كانت فى الصلاة ، فسجدت على البوارى فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة . . . » (أى إلى أن انصرفت من الصلاة) .

ذكرها العطار فى « تذكرة الأولياء » . (راجعه قبلُ)

— ٢٢ —

عبد الرحمن الجامى (المتوفى سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م) : « نفحات الأنس من حضرات القدس » ، مخطوط رقم ١٢٤ بالمكتبة الشرقيـة بجامعة القديس

يوسف ببيروت (راجع فهرست شـيخو لهـا ، ص ٢٨٤ — ص ٢٨٥ ، تحت رقم ١٢٤ :[1]

(٤٠٤) فى ذكر النساء العارفات (٤٠٥) الواصلات إلى مراتب الرجال ....
رابعة العدوية رحمها الله تعالى :

كانت من أهل البصرة . وكان يزورها سفيان الثورى رضى الله عنه ويسألها بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها ودعائها . أتاها يوماً ورفع يداه وقال : « اللهم إنى أسألك السلامة ! » فبكت رابعـــة . فسألها سفيان : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت الذى عرّضتنى للبكاء . فسألهـا : وكيف ذلك ؟ فقـالت : ألم تعلم أن سلامة الدنيا هى فى تركها ؟ وأنت غارق فيها ! ومن كلامها : لكل شىء ثمرة ، وثمرة العلم والمعرفة هى التقرُّب إلى الله . ومن قولهـا كذلك : أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله .

سألها سفيان يوماً : ما خير ما يتقرب به العبد إلى الله ؟ فأجابت : ألا يملك فى الدنيا والآخرة شيئاً سواه .

وقال سفيان يوماً فى حضرتهـا : « واحزناه ! » (٤٠٦) فقالت : « إنك لتكذب ! إن كنت محزوناً ما هنأك عيش . »

— ٢٣ —

« فى كنوز الأوليـاء ورموز الأصفياء » لأبى الليث محرّم بن أبى البركات محمد الزيلى ، المخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٣٩٧٢ عام ، ترجمةٌ صغيرة لرابعة العدوية تقع من ١٤١ ب إلى ١٤٢ ب ، أورد فيها عبارة العطار عن سبب ذكره

---

(١) سنقتصر هنا على ذكر الترجمة لهذا النص الفارسى الذى نشره من قبل ليس — نساو Lees-Nassau ص ٧١٦ ؛ وان كنا لم نعتمد عليه ، بل على المخطوطة المذكورة .

لها فى صف الرجال [1] ، ثم نقل عن « رسالة القشيرى » ثم عن ابن الجوزى ؛ وليس فيها شىء لم يرد فى المصادر الأخرى .

— ٢٤ —

ابن العماد الحنبلى ، « شـــذرات الذهب » ، نشرة القدسى ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ص ١٩٣ ، أخبار سنة ١٣٥ هـ :

« وفيها رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل . وقيل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ، ولا يصح اجتماع السرىّ (= السرى السقطى) بها ، فإنه عاش حتى نيف على الخمسين ومائتين . وروى أن سفيان الثورى قال بحضرتها : واحزناه ! فقـالت : لا تكذب ! وقل : واقلّة حزناه ! وسمعتـه يقول : اللهم إنى أسألك رضاك . فقالت : تسأل رضا مَنْ لستَ عنه براضٍ ! ورآها بعض إخوانها فى المنام فقالت : «هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمّرة بمناديل من نور .»

وقبرها على رأس جبل يسمى الطور ، بظاهر بيت المقدس ؛ وقيل : ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية . وقيل لهـا فى منام : ما فعلت عبيدة بنت أبى كلاب ؟ قالت : سبقتنا إلى الدرجات العلا . قيل : ولِمَ ذلك ؟ قالت : لم تكن تبالى على أىّ حالٍ أصبحت من الدنيا وأمست » .

— ٢٥ —

كتاب « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع »

تأليف أبى الحسين محمد بن أحمد الملطى

فى الحديث عن مذاهب الزنادقة :

ومنهم الروحانية ، وهم أصناف . وإنما سمّوا الروحانية لأنهم زعموا أن أرواحهم

(١) راجعه قبل ص .

تنظر إلى ملكوت السموات؛ وبها يعاينون الجنان ويجامعون الحور العين؛ وتسرح في الجنة . وسمّوا أيضاً الفكرية لأنهم يتفكرون في هذا حتى يصيرون إليه؛ فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم؛ ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية فيتلذذون بمخاطبة الإلاهية لهم ومصافحته إياهم ونظرهم إليه — زعموا ؛ ويتمتعون بمجامعة الحور العين ومفاكهة الأبكار على الأرائك متكئين ، ويسعى عليهم الولدانُ المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار . ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان مستقيماً . وأما هذه الفكرة فبوّبها لهم الشيطان لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يومَ القيامة — وهكذا وعد اللهُ عباده المؤمنين والمؤمنات .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة من الله فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذُ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم رباح وكليب ، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعون إليها . كذبوا ! أعداء الله ! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول: لست هناك، ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغى للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة من تضمير أنفسهم وحملها على المكروه . فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل مايشتهى وتمنى ، وأن أكل الطيبات كأكل الأراذلة في الأطعمة ، وكان الصّبِر والخبيص عنده بمنزلة ، وكان العسل والخل عنده بمنزلة .

فإذا كان كذلك فقد بلغ غاية السبقة وسقط عنه تضمير الميدان وأتبع نفسه ما اشتهت. منهم ابن حيان كان يقول هذه المقالة.

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيم (ص: تعظيما) للدنيا ومحبة لها: لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيذ شرابها ولبس لباسها وطيب رائحتها. فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها؛ وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ماترك منها حيث كانا يقولان هذه المقالة.

ومنهم صنف زعموا أن الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الحرام. فأما الحلال فمباح لهذه الأمة من أطايب [٩٢] الطعام وغرائب الألوان وكفاية الخدم ولين الرياش وسعة المنازل ووطاء المهاد وتشييد القصور وكفاية الحاجات وترك الطلبات وقضاء الأوطار. وأن الأغنياء أفضل منزلة عند الله من الفقراء لما أعطوا من فضل أموالهم وفضول من نوائب حقوقهم وأدركوا من منتهى رغباتهم هم. لقد قالوا خلاف ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام. وروى عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً.

[مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٥٩ توحيد ص ٩٠ — ٩٢]

— ٢٦ —

من كتاب «شرح حال الأولياء» تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام ابن غانم المقدسى، مخطوط رقم ١٦٤١ عربى بالمكتبة الأهلية بباريس:

(١٢٥٣) شرح حال رابعة رضى الله عنها

كيف رأيتِ[١] المحبة؟ قالت: ليس للمحب وحبيبه بين، وإنما هو نطق

---

(١) ص رأيتى.

عن شوق ، ووصف عن ذوق . فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف . وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك[١] له ملآن ، وبسرورك له ولهان ! فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار . فما ثمَّ إلا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، وأجساد [٢٥٣ب] من السقم غيرُ سالمة ، والمحبة ، بدولتها الصارمة ، فى القلوب حاكمة — (شعر) :

وارحمتا للعاشقين ! قلوبهم	فى تيه ميدان المحبة هائمة
قامت قيامة عشقهم فنفوسهم	أبداً على قَدَم التدلُّل قائمة
إمّا إلى جَنات وَصْل دائمٍ	أو نار صدٍّ للقلوب مُلازمة

يارابعة ! فأنت[٢] فى ميدان المحبة رائعة ، فكيف كانت صورة الواقعة ، حتى سميت رابعة ؟ والحلة واحدة ، فمن أين هذه الشركة والمجامعة ؟ فقالت : ياقوم ! الموافقة شرطٌ فى الصحبة . أما نظرت إلى بنى الرغبة والرهبة ، إلى أن شرب بحر المحبة فى شربه ، فرأيته يقول لصاحبه فى الغار : « لاتحزن إن الله معنا » ماظنك باثنين إن الله ثالثهما ؟ فتقدمت إلى خلوة الغار : بأقدام المبايعة ، فصاحت الغيرة من داخل الغار : ما هذه الوالهة الجازعة ، التى كشفت القناع ولم[٣] تكن بدوننا قانعة ؟ (شعر) :

كأسى وخمرى والنديم : ثلاثة	وأنا المشوقة فى المحبـــة : رابعه
كأس المسَرة والنعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظـــرتُ فلا أرَى إلا له	وإذا حضرت فلا أُرَى إلا معه
يا عاذلى ! إنى أحب جمـــاله	تا الله ما أُذُنى لعَـــذْلك سامعه

---

(١) ص : بفرغك . (٢) س : فأننى . (٣) ص : كم .

كم بتُّ من حُرَق وفرط تعلق[١] أُجْرِي عيوناً من عيونى[٢] الدامعه
لا عبرتى تُرْقا ، ولا وَصْـلى له يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

— ٢٧ —

« كتاب سير السالكات المؤمنات الخيّرات » لأبى بكر الحصنى ، مخطوط رقم ٢٠٤٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٢٦ ا :

. . . ومنهن رابعة العدوية

وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشن تكاد تسقط وتحتها بارية . وكانت[٣] إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رِعْدة : قال مِسْمع ورباح : أتاها رجل بأربعين ديناراً ، فقال : استعينى بهذه الدنانير على بعض حوائجك ! فبكت ثم قالت : هو يعلم أنى أستحيي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أريد أن آخذها ممن لا يملكها ؟ ! قال عبد الله بن عيسى : دخلتُ على رابعة فرأيت على وجهها النورَ وكانت كثيرة البكاء . فقرأ رجل آية فيها ذكر النار ؛ فسقطَتْ ، وسمعتُ وَقْعَ دموعها على البارية مثل الوكف ، وصاحت . فقمنا وخرجنا .

وكانت — رضى الله عنها — إذا مرّت بقوم عرفوا فيها العبادة ، فقال لها رجل : ادعى لى ! تلتصق بالحائط وتقول : من أنا يرحمك الله عز وجل ؟ ! أَطِعْ ربّك وادعُه فإنه يجيب المضطر .

قال ابن منظور : دخلت على رابعة وهى ساجدة . فلما أحست بمكانى رفعت رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمتُ ثم أقبلت على وقالت : يا بنىّ ! ألك حاجة ؟ فقلتُ : جئتك لأسلّم عليك . قال : فبكت وقالت : [٢٦ب] سَتْرَكَ اللهم سَتْرَكَ ! ودعَت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت

(١) ص : تقلعى . (٢) ص : عيون . (٣) ص : كان .

وقالت : استغفر الله — عز وجل — من قلة صدقى فى قولى : استغفر عز وجل .

لله درُّها من امرأة !

ما أنور قلبها !

قال أزهر بن هارون : دخل على رابعة رباح القيسى وصالح بن عبد الجليل وكلاب فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها . فقالت رابعة : إنى لأرى الدنيا بيرابيعها فى قلوبكم . فقالوا : ومن أين توهمت علينا ذلك ؟ فقالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال لها شيخ من قريش : هل عملت عملا تريْنَ أنه يُقْبَل منك؟ فقالت : إن كان ، فمخافتى أن يُردَّ علىَّ .

قال جعفر بن سليمان : أخذ بيدى سفيانُ الثورى وقال : مُر بنا إلى المؤدِّبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يديه وقال: اللهم إنى أسألك السلامة . فبَكَتْ رابعة فقال لها : مايبكيك ؟ فقالت : أنت عرَّضتنى للبكاء . فقال لها : وكيف؟ فقالت : أما علمْتَ أن السلامة من الدنيا تَرْكُ مافيها ؟ فكيفَ وأنت متلطّخ بها! فقال سفيان : واحزناه ! فقالت : لاتكذب قل : واقلة حزناه ! لو كنت محزوناً ما هنأك العيش . قالت : يا سفيان ! إنما أنت أيامٌ معدودة . فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل . وأنت تعلم ، فاعمل .

كانت عبدة تخدم رابعة ؛ وكانت تقول عن رابعة : إنها تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر [فـ] كنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة : يانفس ! كم تنامين ! و إلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لاتقومين منها إلا بصرخة يوم النشور. قالت عبدة: وكان هذا دأب رابعة ،دهرها، حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة قالت: ياعبدة ! لاتؤذنى بوفاتى أحداً وكفنينى فى جُبَّتى هذه — وكانت من

شَعَر ، تقوم فيها إذا هدأت العيون [٢٧ ا] — قالت : فكفناها فى تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه .

قالت عبدة : فرأيتها بعد سنة أو نحوها فى منامى وعليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً مثله . فقالت يارابعة مافعلت [بـ] الجبة التى كفّنتك بها والخمار الصوف ؟ فقالت رابعة : والله نزع منى فأبدلت به هذا الذى ترينه علىّ ؛ وَطُوِيت أكفانى وخُتِم عليها ؛ ورُفِعَتْ فى عليين ليكون لى ثوابها يوم القيامة . فقلت لها : لهذا كنت تعملين فى الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ! فقلت : فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ؟ فقالت : هيهات هيهات ! والله ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . فقلت : وبم وقد كنت عند الناس أكثر منها ؟ فقالت : لم تكن تبالى على أى حالة أصبحت من الدنيا وأمست . فقلتُ : مافعل بشر بن منصور ؟ فقالت : بخٍ بخٍ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل . فقلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . فقالت : عليك بكثرة ذكره ، فيوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك . والله أعلم .

* * *

[٣٨ب] (رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى) .

. . . ومنهن رابعة بنت اسماعيل ، زوجة أحمد بن أبى الحـــوارى خادم أبى سليمان(١) رضى الله عنهم .

وهذه رابعة شامية ؛ ورابعة العدوية بصرية قال أحمـد بن أبى الحوارى : قلت لزوجتى رابعة وقد كانت تصلى بليل : قد رأينا أبى سليمان وتعبـدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل . فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ! إنمـا أقوم إذا نوديت .

---

(١) أبو سليمان الدارانى ، الصوفى الشامى المشهور المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

قال (أى ابن أبى الحوارى) : وجلست آكل فجعات تذكرنى . فقلت : دعينا [١٣٩ ا] يهنأ طعامنا بطعامنا[١] فقالت : ليس أنا وأنت ممن يتنغّص عليه الطعام عند ذكر الآخرة .

قال أحمد : قالت لى : أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل أطلعه الجبارُ على مساوىء عمله فتشاغل به دون خلقه ؟

وقال : قالت لى : إنى لأضنّ[٢] باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى، وإنى لأرى ذراعى قد سمن لأحزَن — ومعنى أضن أبخل أن آكلها ، نظراً منها إلى قوله عزوجل: « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون» . وأما خوف السِّمَن من ذراعها فلأجل أكل الدود له وخوفاً من وقوف الحساب لأجل كثرة الأكل ، رضى الله عنها .

قال : وكنتُ إذا نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فأحزن لذلك .

قال : وكانت تقول : لست أحبك حب الأزواج، إنما أحبك حبَّ الإخوان؛ وإنما رغبتُ فيك رغبة فى خدمتك ؛ وإنما أُحِبُّ وأتمنّى أن يأكل مالى مثلُك ومثلُ إخوانك .

وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كله ياسيدى فمانضجَت إلا بالتسبيح .

وقالت : لست أستحلُّ أن أمنعك نفسى وغيرى ، اذهب فتزوج! فتزوجت ثلاثاً فكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك. وكنتُ إذا أردت قربها نهاراً تقول : أسألك بالله تعالى لا تفطرنى اليوم ، وإذا أردتها بالليل تقول : أسألك بالله لما وهبتنى لله عزَّ وجل هذه الليلة .

وكان معها سبعة آلاف درهم أنفقتْها علىَّ .

وكانت تقول لى : ماسمعْت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيامة؛ ولارأيت

---

(١) ص : يهنى . (٢) فى الصلب : لأظن ؛ والتصحيح بالهامش .

الثلج إلا ذكرتُ تطاير الصحف ؛ ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحَشْر .

قال: وكانت تقول : ربما رأيتُ الجن يذهبون ويجيئون ؛ وربما رأيتُ الحورَ العين يستترن مني بأكمامهن ؛ وقالت : بيدها على رأسها .

ودعوتها يوماً فلم تجبني . فلما كانت بعد ساعة أجابتني وقالت : إنما منعني أن أجيبك أن قلبي قد كان امتلأ فرحاً بالله عز وجل (٣٩ ب) فلم أقدر أن أجيبك .

قال أحمد : كان لرابعة زوجتي أحوال شتى : مرةً يغلب عليها الخوفُ ومرةً يغلب عليها الأُنس، ومرةً يغلب عليها الحب . سمعتها في حال الحب تقول :

حبيبٌ ليس يَعْدِلُه حبيبُ　　ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب(١) عن بصري وشخصي　　ولكن عن فؤادي لا يغيب

وسمعتُها في حال الأُنس تقول :

ولقد جعلتُك في الفؤاد مُحَدِّثي　　وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مِنّي للجليس مؤانس　　وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها في حال الخوف تقول :

وزادي قليلٌ ما أراه مُبَلِّغي　　ألِلزاد أبكي، أم لطول مسافتي ؟
أَتُحْرِقني بالنار ياغاية المنى ؟　　فأين رجائي فيك! أين مخافتي؟!

والله أعلم .

—٢٨—

« مرآة الزمان » لأبي المظفّر يوسف المعروف بسبط بن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (= ١٢٥٧ م) ، مخطوط رقم ١٥٠٥ بالمكتبة الأهلية

(١) حبيب عيني غاب ...

بباريس* ورقة ١٦١ب (أخبار سنة ٢٤٦ هـ بعد الكلام عن زوجها أحمد بن أبى الحوارى) .

ذكر زوجة أحمد بن أبى الحوارى

عامّة الرواة على أن اسمها رابعة ، وكانت فى العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة، لا بل أبلغ .

وروى عن أحمد بن أبى الحوارى أنه قال : كانت إذا طبخت قدراً تقول لى: كلها ! فوالله ما أنضجتها إلا بالتسبيح .

وروى أبو عبد الرحمن السلمى (١٦٢ ا) أنها قالت لزوجها أحمد : « ربما رأيت الحور العين يذهبن فى دارى ويجئن ويستترن بأكمامهن منى » .

وروى ابن باكويه عن أحمد بن أبى الحوارى قال : قلتُ لرابعة — وكانت تقوم الليل — : قد رأينا أباسليمان وتعبّدنا معه؛ ما رأينا من يقوم الليل[(١)] إلا أنت[(٢)] . فقالت :سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا الكلام ! إنما أقوم[(٣)] إذا نوديتُ .

وحكى أبو نعيم عن سرىّ السقطى قال : قدمت الشام فدخلت على أحمد بن أبى الحوارى المسجدَ فسلمت عليه وقلت : عظنى وأوْجِز ! فقال : ما أحْسن ، ولكن سِرْ[(٤)] إلى المنزل ففيه من يُحْسِن . قال : فخرجت أطلب منزله ؛ وإذا براهب كبير ، خلفه صغير . فقلت للصغير : لِمَ تتبع هذا؟فقال : لأنه طبيبى يسقينى الدواء . قال: فورد على قلبى من كلامه شىء لاأعقله؛ فجئت إلى منزل أحمد فطرقتُ الباب؛ فكلمتنى امرأة من وراء حجاب ، فذكرتُ لها قول الراهب. قال: فقالت « ياليت شعرى أى داء يسقيه : دواء الإفاقة أم دواء الراحة ! » فقلتُ : بيِّنى ما تقولين .

---

* للمخطوط ترقيمان لصفحاته أحدهما بالعربية والآخر بالافرنجية ويختلفان بقدر ورقة ، وقد اخترنا الثانى .

(١) وردت مكررة فى الأصل. (٢) س : أنتى (٣) س : نقوم . (٤) س : صير.

فقالت : « أما دواء الإفاقة فالكَفُّ عن محارم الله تعالى ؛ وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى » . قال سَرِىّ : فوالله ما خرج كلامها من قلبي أبداً .

وقال أحمد : سمعتُ رابعة تقول : ما رأيت ثلجاً إلا تذكرت به تطاير الصحف ، ولا جراداً إلا ذكرت به الحشر ، ولا سمعْت أذاناً إلا تذكرتُ به منادى يوم القيامة .

قال : ودفعتْ إلى يوماً خمسة دراهم وقالت : تزوج بهذه أو تَسَرَّ[1] ، فإنى أستغفر عنك .

قال : وكانت تطبخ الطبيخ وتقول : كلْ اللحم فإنك عهد بغرس وتحتاج إليه .

وكان لأحمد أربع نسوة .

قال أحمد : وكان لها أحوال فى المحبة ، فتارة تقول :

حبيبٌ ليس يَعْدله حبيبُ ... ولا لسواه[2] فى قلبي نصيب

حبيب غاب عن بصرى وسمعى ... ولكن عن فؤادى ما يغيب

وتارة يغلب عليها الأُنْس فتقول :

ولقد جعلتُك فى الفؤاد مُحدِّثى ... وأبحتُ سِرِّى من أراد جلوسى

فالجسم منّى للجليس مؤانس ... وحبيبُ قلبىَ فى الفؤاد أنيسى

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول :

وزادى قليل ما[3] أراه مُبلِّغى ... ألازاد أبكى ؟ أم لطول مسافتى ؟

أتُحرقنى بالنار يا غاية المُنَى ؟ ... فأين رجائى فيك ! أين مخافتى ؟ !

توفيت رابعة قبل أحمد فى سنة تسع وعشرين ومائتين رحمة الله عليها .

---

(١) ص : تسرى . (٢) ص : سواه . (٣) ص : لم .

— ٢٩ —

كتاب* « نفحات الأنس من حضرة القدس » لعبد الرحمن الجامى تعريب تاج الدين زكريا العثمانى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٣٧٠ عربى ، ورقة ٢٣٦ ا :

رابعة العدوية رضى الله عنها

كانت من البصرة ، ويسأل منها سفيان الثورى مسائل ويذهب عندها ويرغب إلى موعظتها ودعائها . فيوماً دخل عليها سفيان الثورى وقال : اللهم إنى أسألكَ السلامة . فبكت رابعة . فسألها سفيان: ما يبكيك. قالت: أنت أبكيتنى قال سفيان : بم ؟ قالت :أما علمت أن السلامة فى ترك الدنيا وأنت مشتغل بها ؟!

قالت رابعة : لكل شىء ثمرة ؛ وثمرة المعرفة تولّى الوجه إلى الله(١) تعالى .

وأيضاً عنها قالت : أستغفر الله من قلة صدقى فى أستغفر الله .

سألها سفيان (٢٣٦ ب) : أى شىء أَفْضَل أن يتقرب به العبد إلى الله ؟ قالت : ألا تطلب من الدنيا أو الآخرة غيره .

ويوماً قال سفيان عندها : واحزناه ! قالت : لا تقل الكذب ! إن كنت أنت محزوناً لا تكن مسروراً فى الحياة الدنيا .

وأيضاً عنها قالت : لا يكون حزنى أن أكون محزونة ، بل حزنى أنى ما كنت محزونة .

* * *

(٢٣٧ ب) رابعة الشامية رحمها الله تعالى .

هى زوجة أحمد بن أبى الحوارى ، قال أحمد بن أبى الحوارى : كانت

---

(١) كلمة « الله » غير واضحة فى المخطوط . وهذا الموضع والصفحات التالية عليه آثار سوداء شوهته . فلا يقرأ إلا بعناء شديد .

* المخطوط يقع فى ٢٤٥ ورقة حجم ٢١٫٥ × ١٥٫٥ مسطرته ٢٥ تاريخ نسخة ١١٠٤ هـ .

مختلفة الأحوال . يغلب عليها العشق والمحبة ، مرةً أُنْس ، ومرة خوف ، وفى حال غلبة المحبة تقول (شعراً) :

حبيب ليس يعـــد له حبيب   وما لســـواه فى قلبى نصيب
حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى   ولكن عن فؤادى لا يغيب

وتقول فى حالة الأنس (شعراً) :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدِّثى   وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم مــنى للجليس مؤانس   وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وسمعتها تقول فى حالة الخوف (شعراً) :

وزادى قليــل ما أراه مُبَلِّغى   ألِلزاد أبكى،أم لطول مسافتى ؟!
أتحرقنى بالنــــار يا غاية المنى   فأين رجائى منك ، أين مخافتى؟!

وتقول لأحمد بن أبى الحوارى : لست أحبُك حبَّ الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان . وكانت لما تطبخ الطعام تقول : كل يا سيدى فما طبخت هذا الطعام إلا بالتسبيح .

قال أحمد بن أبى الحوارى يوماً : كان عندها طشت . قالت : ارفع هذا الطشت لأنى أرى أن الأمير هارون مات . فبعد تفحص تحقق [أن] مات هارون الرشيد ذلك النهار .

فهرس الكتب

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ج)